

# امير لبنان

## الفصل الاول

### النصح بالاخلاص

هضاب لبنان آكام يعلو بعضها بعضاً من ساحل بحر الروم الى قنن صنين مرتفعة على طول البلاد من طرابلس الشام الى ساحل صيداء . رصعتها القرى والدمسكر ووشحتها حرا- الصنوبر والبلوط وتحللتها اودية وهجوات تنساب فيها الجداول والغدران وقد قامت على جوانب الحدائق والبساتين من التوت والريتون والتين والرومان . ودُججت ارضها بطرائق الديباج من البرجس والحرام والاقحوان . بلاد المروّة والضيافة والشهامة والعفاف . مضى على سكاة دهور طوال وهم يغرسون كرومهم ويحجرون تارهم ويذودون عن ذمارهم بالببيض الصفاح جابهم عزيز وحرزم حريز . يمرّ بهم العراة من مصر وبابل واليونان والرومان كالطيور القواط تلتهم ما تراه وتعادد البلاد واهلها فيعودون الى زرعهم وضرعهم يغرسون البساتين ويزرعون الحقول ويسومون القطعان ويننون البيوت ويتيدون القصور آمنين ناعمي البال الى ان يتاهم عاز آحر كما تنساب الاوشة البلادان فيظاهروه او يتاغبوه حسب مقتضى الحال لما كثر مرور العراة في بلاد الساحل بين بيروت ولبنان انخدر الامراء آل ارسلان من التوف الى الغرب ورلوا قرى تطل على طريقهم لاستكشافها فسميت التسويقات وبوا في دورهم حيث ضاهم سلطان دمشق الملك المؤيد الحمودي الحاصكي منذ خمس مئة عام وبرا على الامير سيف الدين ثلاثة ايام

في دار من هذه الدور وقف الامير احمد صباح يوم من اواخر عام ١٨٥٩ وقف في رواق يطل على بحر الروم وعابة الريتون المعروفة بصحراء التسويقات . وكانت سفن الصيادين قد خرجت من بيروت للصيد ونشرت شراعها لنسيم الصبا وقد هب صباحاً من البر الى البحر قبل اشتداد الهجير فجازت خلدة وشقت صدر الماء فارغى وازيد . وشرت الغزالة اشعة

الرمال بين الصحراء وانحر فعصفتها وعجتت بما تجمع على اوراق الريتون من ندى الليل  
رضيably لطيعاً كالعاس الخبين

وقف الامير هنيئة يقلب طرفه في ما يراه من جمال الطبيعة ويستشق سيم الصباح  
سغي الى تغريد الطيور وهم بالخروج للصيد ثم نادى الى التمكنير في كتاب ورد عليه في الليل  
نت من الكولونل روز قنصل انكترا في بيروت وقال في نصد لامر دسافي القنصل اليه  
بد من تلبية دعوتيه . ولم يستغرب دعوة القنصل له وتحصيصة اياه دون اساء عمه لانه  
ن يعتمد عليه بعد ابيه والكتاب ليس من القنصل نفسه بل من ترجمانه . تم دخل عرفة  
تقد الكتاب وقرأه ثانية فاذا هو يقول فيه

”الجناب الاكرم والملاذ الانعم الامير احمد ارسلان المحترم دام بقاءه

بعد اداء واجب التحية والاكرام اعرض ان سعادة القنصل امرني كي اكتب اليكم  
وكم الى دار القنصلية عد اصباحاً للذاكرة في بعض الشؤون الهامة والمرجو تتريبكم في الوقت  
بن وادام الله بقاءكم“

فقال في نفسه ما هذه الامور الهامة يا ترى وماذا لم يكتب القنصل نفسه الي بالفرسوية  
يظن اني اكون آلة في يده كما كان المرحوم والذي تلك ايام مضت ولن تعود . نعم ان  
لتمنا وفرنسا ساعدتا دولتنا على الروس في حرب القرم ولكن تلك المساعدة لا نقضي عليها  
استعباد وليس من صواب الرأي ان نجاري خورشيد باتسا في ما طلبه ولكن لا يليق بنا  
نستيت الى هذا الحد

ثم نظر الى ساعته ونادى مسروراً عبده وامره ان يشد على جواده ولبس يابته بذلة  
الجوخ الكحلي وطباقاً مزركشاً بالقصب وثقله سيفه وهو لجدد الاعلى الامير جمال الدين  
هويه السلطان سليم الفاتح في مدينة دمتق يوم دخلها ظافراً . وتكب قرينة صنعت لايه  
بيت شباب صنعها له اولاد تقاع من فضلات نعال الخيل المطرقة بجاءت مجوهره  
السيوف الدمشقية يطلق بها عشرين حواشة معاً فتطلق منها كالمذفع الرتاش ولا يستطيع  
للاقها الا من كان ساعده من الحديد مثل ساعده . والتي على كتفيه برنسا ايض من نسج  
شق ثم اعلى صهوة جواده ووضع فردين صغيرين في قربوصه وهما هدية لايه من ابرهم  
ثا اهداها اليه قبل واقعة اللجاة . وسار وامامه عبده مسرور وسالم وهما بالعدة الكاملة  
كلت منهما يطقان وزوج ظبنجات وبنديفة نظامية ابرهيمية من البنادق التي القتها جنود  
هم باشاوهي غالة الى مصر . قر في طريق متعرج بين البيوت والخوانيت وكانت نساء

الى اكتافهم " اورؤوسهن " والبراقع مسدولة على وجوههن "
 ها لينظرن طريقهن ". فلما دنا منهن " وقفن - كاسرات الطرف
 فون في حوائيتهم ويضعون اكفهم على صدورهم ويجيونه
 الى الشياح والناس ينظرون اليه سرراً لان قلوبهم كانت
 وت وكان المهجير قد اشتد " وعلا صوت الصراصير فوقف
 قي من الصنوبر الذي غرسه الامير نجر الدين المعني وهي
 ميم باتسا كالجبار بين الاطفال حتى ادا كثر رفس الجواد
 " في طريق الميدان فالباتورة . وعرف اصحاب الحوانيت
 في لكنهم لم ينهضوا للسلام عليه لاعتقادهم ان اهالي لبنان
 من نسل الملوك . ولا هو بادأهم بالسلام انقة وعتوا . ودار
 طريق المصيطبة الى بيت الكولونل روز قنصل الانكليز
 بن عند الباب وامسكا بركاب جواده فنزل عنه ونفح
 كبيرة كواها تطل على حديقة غناء نسقت فيها اشجار
 لورد والياسمين وكانت الغرمة مفروشة بالبسط الفارسية
 من نسج دير القمر ومكتب كبير من خشب الحوز مطعم
 كراسي انكليزية كبيرة مكسوة بالجلد البني امامها موائد
 ورحب به تم اتي بالقهوة ودار الحديث بينهما على شوون
 امير من ان نصارى المتن والعرقوب وزحلة ودير القمر قد
 عمل لهم الآسبك الرصاص ولم الفتك فلا عجب اذا
 يلعني ان كسروان كلها متحفرة للشورة وان يوسف بك
 ل ازره " واكد له ان فرسا لا تحلى عن المواربة بوجه
 بلغني ان خورشيد باتسا قال لكم مثل ما قال قنصل فرنسا
 فلم اقابل خورشيد باتسا . فقال القنصل نعم لم نقابله انت
 ت بكذ ومضى اتان منهم الى خلوات البياضة لهذا الغرض
 ك من عواقب الثورة فاره اذا استفحل الخطب فلا يبعد
 ؟ نرضاه لكم ولا للدولة العثمانية وامس كان عندي سعيد
 ليس الخوف من عقابكم بل الخوف من جهالكم وانا اعلم

لماعتهم للعقال ولكن ما كل وقت يكون العتال عني ثقلة من امرهم  
 طالت المذاكرة نحو ساعين حتى اذا حان وقت العداء داء القمصل الامير للعداء معه  
 في معهما شاب انكليزي اسمه السر هنري بدعوت في عرفة بجورة اعزمة الاستقبال وجلسوا  
 مداء يدخنون التبغ ويتسرون القهوة ويتكلمون في مصراع الحبل وارتب امرائهم وسبب  
 بين اليزبكية والجنرالطية وبين المصري والدروز الى غير ذلك مما يهتم به قاصد  
 ليز خاصة وكان كلامهم بالفرنسوية . وقد سر السر هنري بحديث الامير احمد وطلب  
 ان يسمح له بزيارته في داره بالشويقات فقال حبا وكرامة وان سمحت وني آتي بنفسي  
 بك . فقال السر هنري اني لا اكتمك الى ذلك وسازورك بعد عدي مع احد قواسم  
 لية . ثم استأذن الامير احمد في الانصراف فودعه الكواويل روز والسرهري بدمونت  
 ب القنصلية

ومر وهو راجع في طريقه بيت رجل اسمه الشيخ درويش ويكنى بابي نجر . وكان هذا  
 قد راه ذاهبا الى دار القنصل فجلس في رواق بيته ينتظر عودته حتى اذا مر به قام  
 ودعاه لينزل ويشرب القهوة . واعنذر الامير عن الدروال نفوات الوقت فقال له لا ارت  
 لمرحوم والدك كان يشرفنا كلما نزل الى بيروت وبيتنا مستعد لقبول الروار وامس شرفنا  
 ، والسرعسكر . وما زال به حتى ترجل وصعد معه الى رواق كبير يطل على الطريق  
 لس قال له الشيخ درويش يا سبحان الله انك جلست على الكرسي الذي كان يجلس  
 المرحوم والدك وهو الكرسي الذي يجلس عليه دولة الوالي كما زارنا هات احبرني اين  
 ت ولا تخف عني شيئا فان المرحوم والدك كان يطلعني على كل اخباره واسراره وقد كان  
 صديقا له واوصاني لا كون صديقا لك قل لي اين كنت . فقال الامير كنت في بيت  
 لونل روز لشغل خصوصي

فقال الشيخ اي نعم لشغل خصوصي اسمع يا ابني ولا تمك الاجانب منك ولا تحد عن  
 ابيك رحمة الله ولماذا لم تذهب الى بيت الوالي مثل سائر مناصب الجبل  
 فقال الامير اني ذاهب اليه

فقال الشيخ احسنت احسنت وتفضل خذ القهوة . انظر ما اجل هذه الفناجين فانها من  
 يني الحراشواها المرحوم والذي من دمشق الشام كل فنجان بعشرة فندقليات اذا رميته  
 الارض لا ينكسر والظروف من صياغة اسطانبول فضة روباص وذهب بتدقي والمرجان  
 اعلى طبقة الظروف اشترجها اتا من اسطانبول اخذتها من الدلال بثمن بخس بالنسبة

لي باشا الصدر السابق وبيعت مع بعض التحف بعد ما قتل .  
 نها كانت للسلطان مصطفى . نعم كانت للسلطان مصطفى فاهداها  
 تربيتها بمالي . كل ما عندي استريرة بمالي لاني اكره المهاداة  
 نت الآن تشرب القهوة في فيجان من العين وظرف كان يشرب  
 له

هذا الرجل وجة للفخر والمباهاة ولذلك لقب الما نخر فلم يسوءه  
 ة على قدر الامكان فلم يكد يشرب القهوة حتى نهض وقال  
 ' بدلي من روية دولة الوالي

فانا اذهب معك اليه ولكن قد حانت صلاة العصر ولا بدلي  
 ' اترك الصلاة مطلقاً فلي الطائر الميمون

ب اليه ان يشرفه الى التسويات وركب جواده وسار الى دار  
 ساعة دار فيها الحديث على شوون الجبل وكان الوالي  
 يقال له ' انتم سيف الدولة ولا غني لنا عنكم ولا غرض لنا الا  
 كف يد الاجانب عنها ولا بد للدولة من ذلك مهما كلفها  
 يها مثل ابناء عمك

م عن خاطر الدولة لان طاعتها فرض علينا ولكن يا حبيذا لو  
 عرب اهلية

ده ولكن اذا كان لا بد من الحرب الاهلية فالدولة لا تتغاضي  
 ي ليفتك بالضعيف وقد ابنت رأبي بالاسهاب لتسيخ العقل  
 له لكم ولا اخفي عليك ان ترددك على القنصل لا يرضينا  
 ذي اعلم ان دولة الانكليز من اسد الدول صداقة لدولتنا العلية  
 ، ولكن ليس كل رجالها على رأي واحد

لاميران مدة الريارة انتقضت فقام وودع فوقف له الوالي  
 تقبله فيها على خلاف عاداته . وكان هذا الحديث باللغة  
 الما كان في الاستانة مع اييه وهو يحسن التكلم بها كما يحسن  
 قد اذن فركب جواده وعبداه معه وسار راجعاً الى الشويات  
 كان يفكر في كلام القنصل المسهب وكلام الوالي الموجز

الجيل وما يمكن ان تأول اليه اذا نسبت فيه حرب اهلية تسفك فيها الدماء وتحرق  
 . وراجع ما كان من نتائج الحروب الاهلية السابقة وكما اضعف على ضعف وذل على  
 ال لا بد لي من اتباع نتيجة الاتصال وحملي انما عمي شي اتبعها . ووصل الى نهر  
 وهو تائه في وياي الافكار وحانت منه التفاتته فرأى سوة جناسات وراء مطحنة تخفق  
 وغض طرده وذل سائرا  
 كانت الشمس قد آذنت بالمعيب وانتشر ذهب الاصيل على ربي لبنان والبس الاق  
 معلما من البرفير والارجوان

## الفصل الثاني

### بارقة الامل

في احوال الناس سرغامض لا ينطبق على قاعدة معلومة وهو الاتفاقات الكثيرة التي  
 لي غير انتظار . يخطر على بالك رجل لم تره منذ سنين كثيرة وفي الساعة التي يحظر  
 لك فيها تراها آتيا لزيارتك كأن قوة روحية تقدمت ووصلت اليك فأعلمتك بقدمه  
 وتفتش عن عبارة قرأتها في كتاب فتقع عينك عليها حاما تفتح الكتاب وقد تفتش  
 مرة اخرى فلا تجدهما الا بعد العناء الطويل كيف اتفق ان عثرت عليها في المرة الاولى  
 وينشغل بالك بامر هام وترتبك فيه ولا ترى وجها لخاله ثم تقابل احد اصدقائك  
 او رجلا لا تعرفه ولم تره قبلا فتجد عنده حل المشكل والخبر اليقين كأنه سخر  
 منك وقت حاجتك اليه

على هذا النمط كان الامير احمد في نظر السرهنري بدمونت فلم يكذب يخرج من دار  
 صليبة حتى دخل السرهنري مكتبة وعاد الى اتمام الكتاب الذي شرح في كتابته الى امه  
 كرا فيه خلاصة ما جرى له يوما بعد يوم من حين وصوله الى بيروت . وكان قد اخبر  
 عن كل ما رآه وسمعه من حين قدمه وعن درسه جغرافية البلاد من بيروت الى صيدا  
 بينه مكان الواقعة التي جرح فيها جدته الاعلى كونت بدمونت لما اوفده ملك الانكليز  
 قلوب الاسد لفتح بيروت فقد عين مكان الواقعة بالندقيق وكانت ثقايلد عائلته تجعلها  
 ب شهر الدامور المعروف عند الاقدمين باسم تاميراس او داموراس حيث حدثت المعركة  
 هوية المشهورة بين الطيوخسين ملك سورية ونيقولاوس قائد الجيوش المصرية فدارت الدائرة

الفارجل وأخذ الفاسيرو عادت فلوها الى صيدا و ذلك قبل  
: . لكنه وجد ان شكل الارض هناك لا ينطبق على الوصف  
عده بل ينطبق على جهات خلدة حيث تكثر نواويس الحجر التي  
برة بما جاء في دليل اورشليم من ان حلدة على اتني عشر ميلا  
م القديم وهو هلدوى ينطبق على الاسم المديد فالواقعة حدثت  
كهف من الكهوف التي قرب التسويات ولا بد من ان تكون  
خادمة ولف سد باب الكهف الداخلي عليه بعد ان لفة بردائه  
مير احمد وعرف انه من امراء التسويات شعر كأن بارقة من  
علم انه من طائفة الدروز اصحاب الطريقة السرية الخاصة بهم  
جعل يسترق الخط ويتفرس في وجهه . وكان الكولونل روز يعلم  
والاثرية فاتار الى عائلة الامير وقال للسر هنري لا بعد ان  
ند التقي مجد الامير منذ سبع مئة سنة في ضواحي هذه المدينة  
اف ان نتقاضياها الآن

اما الآن فاننا في جوار الامير والعرب يرعون الجوار ويحمون  
، حماكم وضيف عليكم

هنري جاء هذه البلاد للتنفيس عن ربات جدم لانه توفي فيها  
، اكثر رجاله واسر من بني منهم حيا وارجو ان تبذل جهديك

اني من الساعة في سدمنه بادل جهدي في تحقيق نغيتيه  
مروته وكرم احلاقه واتفق معه على ان يزوره بعد يومين ليريته  
ب القديمة

لاموركلها لامه وهو لعجب من هذا الاتفاق الغريب ويقول  
ل لها : - فاذا عدت ومعني الوثيقة وختم قلب الاسد عليها فلا  
وت ولا يبقى اعتراض لاقلين ولا لامها . اواه يا اماه لو تعلمين  
د آليت على نفسي ان لا اكتب الى اقلين حتى اجد الوثيقة .  
بها ختم قلب الاسد وانه وضعها على صدر سيده لما لفته بردائه  
بخ العائلة وان باب المعارة الى جهة الشمال الغربي وقد سدها من

الداخل على اسلوب يظهر منه انهم يتهاشون لا بد وان احدي اليها ان شاء الله .  
 الامير تساب في نحو الرابعة والعشرين نوح على وجوب ابرح الشهامة وعزة النفس وهو  
 الفرنسي ولا يد من انه يحسن لغة العربية وكولون روز بكرمه كثيراً وقل لي ان  
 كان من اخلص الناس لنا لكنه يحشى ان لا يكون من ايدي لانت الذين علموه  
 الفرنسية اثروا في ذهنه فضلاً عن ان ائمة وادامها تكفي هذا التبر . ولا ادري  
 لا يسعى رجالنا في نشر اللغة الانكليزية وتعليمها لاشاء لامراء والعظماء كما يسعى الفرنسي  
 في نشر لغتهم فاننا اذا فعلنا استفدنا تجارة وسياسة . وقد رأيت كثيرين هنا يتكلمون  
 الفرنسية والاطالية ولم ار احداً يتكلم الانكليزية من اناء البلاد غير اثنين او ثلاثة  
 احد يهتم بتعليم اللغة الانكليزية غير بعض المرسلين الاميركيين . وسازور الامير به  
 واكتب اليك عن زيارتي له بالتفصيل . ثم فصل لها كيفية سفره من الاستانة العلية  
 بيروت لكنه لم يذكر لها شيئاً عن المهمة السياسية التي جاء لاجها

وكانت الباخرة الفرنسية على اهبة السفر فطوى الكتاب وارسله مع مكاتب القنا  
 وركب هو والقنصل جوادين وخرجا للنزهة على رمل بيروت الى ان بلغا البحر ورأيا  
 الشمس وقد امتدت اصابع الشفق حتى بلغت الافق الشرقي وهو منظر بديع قرأ عنه  
 الكتب ولكنه لم يره قبل الآن فقال ما اجمل هذا المنظر وما ابدعه للتصوير اين مع  
 الطبيعة يأتون هذه البلاد فيرون فيها كل يوم منظرًا بديعًا تعجز الوانهم عن تصويره  
 فقال القنصل نعم هي كما تقول وفوق ما تقول ومتى جاء فصل الربيع لتعتقها تعشق

هضاب اسكتلندا وجبال سويسرا شيئاً مذكوراً في جنب جبال لبنان وهضاب وكن  
 كيف صار افرح اجرد من توالي المحن وهذه المدينة التي كانت من اعظم المداين الرو  
 تكاد اعلامها تدرس ولولا الاصلاح القليل الذي نالها في زمن الدولة المصرية لصار  
 بعد عين . اين ارز لبنان وبلوط باشان اين المعامل والمصانع لا ترى مكانها غير اديرة الرو  
 ومزارع الفلاحين . اما دور الامراء والمشايخ فلا تذكر في جنب ما كانت عليه قصور ال  
 في سالف الزمن . اين المدارس والمشاهد التي كانت بيروت خاصة بها في عهد الرومان  
 منها غير بعض الاعمدة الكبيرة مبسوثة بين الخرائب والانقاض دالة على عظمتها السالفة

فقال السرحقري أو تبي الحال على هذا المنوال

فقال القنصل كان لان دوام الحال من الحال فان لم تفلح مساعينا احدثت فرنسا  
 كما نرى وان احدثت فلا بد ان تضع حد لسوء الادارة



## الفصل الثالث

## الغداء على الغدير

شويقات قرية كبيرة تفضلها في غزارة مائها وكثرة بساينها  
بنخامة مبانها وهي قرية كفرشما او قرية الفضة . نزلها الامراء  
نزل الارسلانيون الشويقات . وبنى الشهابيون الدور الكبيرة  
فيها وفي ما جاورها من رياض الغدير وهو نهر شتوي يفيض  
يجف في الصيف حتى لا تبقى فيه نقطة ماء

امير من آل شهاب اسمه الامير عباس لم يتنصر مع اخوته  
م مثل اقاربه في حاصبيا ووادي التيم وكان عنده خطيب  
لا يجادل اخوانه الا بالتي هي احسن ولا منع زوجته واولاده  
بيدة التمسك بالنصرانية والاكرام لقسوسها . وكثيرا ما قصده  
تم انتهى الجدل بينهما بقوله لكم دينكم ولي ديني فيترك  
دخان الجبيلي والسقيفي فان المطران كان مولعا بالاول والامير  
بالسقوط ومع المطران حقة مرصعة بالماس اهدتها اليه  
براطور نيوليون الثالث لما زارها في فرنسا فلم يكن يسعه الا استساق  
ونقديها الى الامير حتى يرى حجارة الماس على غطائها والامير  
من صنع الصين لكن حيلة سبقه كانت من الكهرباء وتحتها  
معة بالذهب . والتبقي نفسه تضييب طويل من الورد الاحضر  
وردا كثيرا في حديقة داره لهذه العاية فلا تلبت القصبية  
ها قبلما تجف

ان وابنة اسمها سلى وفي اليوم الذي مضى فيه الامير احمد  
لونل روز قامت الاميرة سلى وطالبت امها بوعدها وهو النزول  
اء هناك لان مطر الحريف كان قد كسا الارض بساطا  
بجة بطراز معلم . فنادت امها جارية اسمها زهرة وقالت لها  
الغدير وقولي للغزندان ان يرسل غداءنا الى هناك ويدعوام  
سلى الى صفا ابنة عمها تدعوها الى النزهة معهما . ثم ركبت

الاميرة هند وابنتها وابنة سلفها خيولاً عربية مطهمة ثم ادى بنا عليها من الحلى ونزلنا الى الغدير ونزل معهن مرجان ويده نار جيلة جوزتها من البلور المطرست وقلها من الفضة والذهب وقد علق على جنبه كيس التباك من الحمل الاحمر انركتس بالتصيب ونزلت زهرة ومعها طاس من الفضة وجارية اخرى بطاس آخر وخادم يحمل مجادتين وساروا الهويتا وقد تكبدت الشمس السماء فلم يصلوا الى الغدير الا قبيل الظهر . تم تبعم بعض الخدم والحتم ومعهم ما طهاه الطهارة من فاخر الطعام وسلتان من العنب واليمون . فمدوا ساطاً للاميرات ووقفت الجواري في خدمتهن حتى اذا اكتفين من الطعام واكن الحلوى والفاكية اتكأن يتطارحن الحديث . وكانت ام يوسف من افكه نساء القرية حديثاً واوسعهن رواية فلا يطيب للشهايات عيش بدونها فيدعونها من بيت الى بيت ولا يخرجن للنزهة الا وهي معهن تطرفهن بالا حاديت المختلفة بعضها صحيح وبعضها مخدق او مزوق فحدثن تلك الساعة عن اعمال السحر والتعزيم التي كان يعملها الشيخ تسير تلحوق وكان من اعلم اهل زمانه وامهرهم وادهاهم . ومما قصته عنه انه كان يضع ابريقاً بين رجلين ويتلو عليه بعض الآيات من القرآن والزبور فيدور الابريق من جهة الى اخرى من تلقاء نفسه بقوة السحر وانه كان يوقف عصاه فتقف ثم يأمرها فتدور امام الجلوس من امام واحد الى امام آخر من غير ان يلمسها احد . ويضع ابريقين في زاويتين من زوايا الغرفة واحداً ملاً والآخر فارغاً ثم يتلو بعض الآيات فينتقل الابريق الفارغ من مكانه ويسير الى مكان الابريق المملآن ويسير الابريق المملآن من مكانه الى مكان الابريق الفارغ هذا والناس ينظرون ويعجبون ولا يتكئون انه يفعل ذلك بقوة سحرية . ويضع بيضة في اناء ويسلقها فتب من الماء العالي من نفسها وتبعد عنه . واعجب من ذلك قدرته على شفاء المجانين من جنونهم لكنه لا يستطع ذلك ما لم يقفل باب غرفته عليه ويبقى فيها عشرة ايام او اكثر صائماً جاهداً واخيراً يأتيه ملك الجن ويقول له اطلب ما تريد فيقول الشيخ ان فلاناً اصيب بالجنون واطلب منك ان تساعدني على شفائه فيقول له ملك الجن ليبيك وسعديك قد اجيب طلبك . ولما تورمت امرأة الشيخ احمد تلحوق حتى ظن انها حامل و طال الزمن عليها ولم تلد ولا شفيت من الورم امر الشيخ بشير يده عليها فشفيت للحال وزال الورم كله وأتي اليه بالشيخ يوسف تلحوق وهو مجنون جنوناً مطبقاً فابقاءه عنده يومين ثم ارجعه الى بيته صحيح الجسم والعقل وكانت كلما اوردت قصة من هذه القصص تستشهد علي صحتها باسماء كثيرين من الرجال المعروفين في البلاد حتى لم تبق شبهة في نفس الاميرة هند وابنة سلفها ان كل ما كان الشيخ

قبيل السحر الحقيقي اما الاميرة سلى فقالت ان كان الشيخ بشير ماهراً  
لا يستعمل سحره في ما ينفعه وينفع ابناء عمه وانا لو كنت مكانه اقدر  
لتمهم بملكوني الدنيا

وجها وقالت اسكتي ولا تتكلمي بهذا الكلام من منا ينكر الجن الم  
ولما رأهم ملأوا المكان الذي كان فيه وضاق بهم ذرعاً وهم يرقصون  
سرفهم عنه الأبان امرهم ليذهبوا وينقبوا له الأرض التي فوق نهر بيروت  
في ساعتين من الزمان ولكنهم جعلوا جلالها ممتدة عرضاً من اعلى الى  
ع ولا شيء تم عادوا اليه يطلبون عملاً يعملونه له فخار في امره واخيراً  
فراى بلاساً اسود فقال لم خذوه واغسلوه لي حتى يصير ابيض فوضوا به  
لم يعودوا ولولا هذه الحيلة لحطفوا روحه

يسف على كلامها وقصت عليهن قصة القديسة هندية التي كان ملك الجان  
تيس من المعزى فتركب عليه وتذهب به الى بلاد الصين وتعود منها  
لحواجه جاماتي وتذهب وترجع في ليلة واحدة من غير ان يشعر بها احد  
واجه جاماتي من الحرير الذي جلبته له من بلاد الصين وها داره امامنا  
ذلك ما استطاع رجل فلاح ان يبني داراً مثل دور الامراء  
سلى سمعت ابي يقول ان الجاماتي كان يدين الامراء ويستد الحرير  
بيعه لتجار الافرنج بتمن غال وهذا سبب غناه

من اين عرف ابوك ذلك والجاماتي نفسه يقول ان الحرير يأتيه من الصين  
صفا الحق مع سلى وانا سمعت ان ميخائيل طوبيا صار اغني من قارون  
من الامراء والفلاحين بتمن بخس وبيعه لتجار الافرنج في مرسيليا  
ف انا لم اسمع ان ميخائيل طوبيا استخدم الجن مثل الجاماتي ولكن لا احد  
م اللعين خزاه الله. ثم قصت قصة رجل اراد آخر ان يقتله غيلة فاتي احد  
كتابة سحرية على قطعة من التخم ومضى وعافها في مغارة عميقة فجعلت  
يب التخم رويداً رويداً وكما ذاب منه شيء فحل جسم الرجل حتى كاد  
لاطباء عن شفائه واحيراً استتاروا له احد السحرة فعرف لسحره امر  
ها حتى وجدوها ونزعوا الكتابة عنها فسلم الرجل من الموت ثم تسي ولولا

فقات سلى اذا كان الامر كذلك هل اذا لا يستعين ولاية بالسحر على اتخاص من  
عدائهم بدل الخطرة بانفسهم ورحلتهم . لا اصدق نية من ذلك

فقات ام يوسف هاك قصة جرت لرحوه ابى يوسف بتررب من المكان الذي نحن  
يه الآن . كان ذات ليلة راجعا من بيروت وكان قمر بدر اوم وصل الى الوروار سمع غناء  
بزغردة فظن ان على الطريق اناسا آتين بعروس تم ما قرب من المنجده علا الصوت كثيرا واتاه  
ربعة اولاد وهم يصتقون ويغنون ويقولون يا ابا يوسف يا ابا يوسف تعال انظر العروس  
سار معهم رغما عنه حتى اذا وصل الى قرب الماء رأى عروسا مجودة وحوفا جهور غفير من  
رجال والنساء وهم بالخلى والحال فقبعضوا عليه وقالوا له هيا نكتب الكتاب فصلب يده على  
وجهه فانشقت الارض وابناعت العروس وكل الذين كانوا معها . وقات ام يوسف ذلك  
رتجفت مفاصل الاميرة هند والاميرة صفا واما سلى فقات ان معني قصر علي قصة من  
مذا القبيل وهي انه كان سائرا مرة في طريق لم يسرفيه من قبل فوصل الى سمر سمع صوتا  
خارجا منها فاطل واذا في قعر البئر نساء يستقين ماء فلم يتك ابن من الجن فاسرع العدو  
ولما اتم غرضه من المكان الذي كان ذاهبا اليه خف ان يعود في الطريق الذي ذهب فيه  
فعاد في طريق آخر يمر من تحت البئر وكان هناك درج يوصل الى اسفل البئر والنساء ينزلن  
به ويستقين من الماء فلوم يمر في ذلك الطريق لاعتقد انه رأى نساء الجن في البئر

فقات لها امها لا يمكننا لا التصديق بوجود الجن وابولكر يصدق بوجودهم والمطرب  
ايضا وكل احد يصدق بوجودهم وهم الذين رجوا بيت خالك بالخطارة فقد فتسا عن الراجين  
كل مكان ولم نر احدا . وقات الاميرة صفا دعونا من هذا الحديد فقد صرت اخاف من  
خيالي ولا يمكنني ان انام وحدي الليلة

وقصت ام يوسف عليهن قصصا اخرى مضحكة فاطربتهن بعد ان خوفتهن بقصص السحر  
والجن فمضى النهار ومالت الشمس الى المغرب وهن لا يشعرن . ولما مر الامير احمد والتفت  
اليهن ثم غض طرفه نظرت ام يوسف الى الاميرة صفا ثم نظرت كتابها الى الاميرة سلى  
فراناها قد احمرت واطرقت الى الارض فتغامتزا ولم تقولوا شيئا . وكان العبيد قد اتوهن  
بالخيل فركبن وعدن الى بيوتهن

ودخلت الاميرة هند غرفة ابنتها في المساء وقات لها اين كان احمد يا ترى الظاهر انه  
لم ينظرنا ألم تغيري فكرك من جهته نقول خالتك ان عمه واولاد عمه يحسبونه رئيس  
العائلة وركنها

كده درزي وفوق ذلك فانا لا اميل اليه مهما كان  
لا يرضى بمجيد لانه شاب خليج  
ال اني اريده . انا لا اريد احداً ولا اريد ان افارقك وانارق ابي

### الفصل الرابع

ما وراء الستار

دور الاستانة العلية التي تطل على البسفور اجتمع جماعة من وكلاء  
توها خفية الواحد بعد الآخر واوصدوا الابواب وجلسوا ينظرون في  
ت اليه من الضعف وجعل كل منهم يقص القصص الخنافة عن  
بها اصدقاء يكاتبونه منها او التي كان مأموراً فيها . وبعد ان نظروا  
وارد الخزينة وفي ما آلت اليه حال الجيش بعد عودته من حرب  
الحدود اخذوا ينظرون في الدياء فاشار واحد منهم ان يعيدوا قراءة  
ظة بان لا يبوح احد منهم بكلمة مما قيل ويقال في ذلك الاجتماع  
لي الكتان واتباع الخطة التي يقع الاجماع عليها . ولا يعلم حتى الآن  
ها والآراء التي ارتأوها ولكن يعلم انهم اجمعوا اخيراً على ان يعمروا  
ورببة ويجعلها تساعدهم على تغيير الحالة . وكان بعض المأمورين في  
وا اليهم من اطلعهم على القرار الذي اجمروا عليه . واهالي سورية  
نهم لا يبنذون ضغائنهم واحقادهم التي اضعفهم واذلتهم فتعبث بهم  
نرين الى كل من يدعي زعامتهم وكيف لا يكون الحال كذلك وقد  
لم قرونًا طوالاً ولسان حالهم يقول

اضغائن آباء لنا سلفوا فلن تبيد وللآباء ابنا

لا اجتماع علي ايقاد نار الثورة وان يكون القصد منها التنكيل بالنصارى  
ض سياسي . وهذا شأن رجال السياسة في كل زمان يبيعون النفوس  
تصدونها ولولا ذلك ما كان لنصف الحروب والنورات سبب معقول .  
سالف عهدهم وانما يختلفون في الاساليب التي يتبعونها وقل من  
شكوى منهم او يقول كما قال ذلك الاعرابي لعمر بن عبد العزيز

ان الدين عنت في قصر بده كتب واستحق المحرم  
 طس السيب على مزر رضى كثر شعور وكثره يتعم  
 وارت ان بلى الامامة منهم - مديت الامين اسلا  
 او من يقول ما قلته استصور قدام ولي الخلافة

حني متى لا رى عدلاً سرّاً ولا رى لولاة احق عوا  
 مستكين بحق قثميف بو ادا زور من الطور الوانا  
 يا للرحال لدا لا دوا ان وقد ذي عمى يقتاد تميا

ولا تحسبن اميران الغري مر بلا لهذه التكموى وتنافياً من هذا الما كلاً الى ان  
 مع اهل الغرب تفوق مطامع اهل الشرق ودهتم من رحل اهل ورحال السياسة  
 يعون الى نيل مآربهم بكل وسيلة ويستحون كل عمل ويدخل روادهم بلاداً بعيدة  
 تلون صاحبها حتى يعاهدهم معاهدة لا بدّ له من الاحلال لها ثم يتعتوه الى ان  
 يوا على بلادهم او على خيراتها بجمحة مخمتمه لداك العهد . ولا بدّ من ذلك ما دام هذا  
 زع للبقاء سنة للكون

في غرفة من غرف الدار الكبيرة التي يسكنها الامير احد ارسلان وقد سكم اوده  
 ه من قبله جماعة من الامراء والسياسين والفقهاء اجتمعوا على اتر عردة الامير احمد بن عبد  
 لونل روز وتداولوا في احوال الجبل فقص عليهم الامير ما قلته لدا اكلون ومائة له الوالي  
 بل كل يدي رأيه ويعيد تاريخ الجبل ويذكر اسباب الاحداد القديمة من عيد آل  
 خ وآل معن وتعرض الدول الاوربية لايهم باتا وكيف استتت السلطة لباب العالي  
 البلاد بمساعدة دولة انكلترا ولولاها ما استطاعت الدولة العلية ان تخرج اريهم باتا من  
 د التام بل كان نصف رجال الدروز الآن منتظمين في سلك اخود المصرية . وبعد كلام  
 يل في هذا الشأن تناول الحديث شيخ اسيب من التلاحقة وقص عليهم ما فعله السيور  
 فنصل الانكليزي في دمشق التام منذ ثمانى عشرة سنة لما هرب الامير امين ارسلان والامير  
 مد شهاب ونحو الفين من الدروز الى حوران فراراً من عمر باتا الذي اعتقل امراء الدروز  
 شايخها وكاد يوقع بكل عظيم منهم فان والي التام اوجس منهم شرّاً لاسيا وانه يعلم  
 فعل الدروز بمساكر اريهم باتا في تلك البلاد الوعرة فجمع اعوانه واستتارهم في الامر  
 ثاروا عليه ان يلجأ الى السيور و لكي يقنع الدروز بالعودة الى الطاعة والرجوع الى

طائهم . والظاهر ان السيور ود سرّ بذلك لانه كان يود ان يوسط امر الدروز من بسط  
بجتي ان لا تقبل وساطته على حد قولهم كل معروض مرفوض فقبل الوساطة على شرطين  
اول ان يطلب العفو لاولئك الرجال من الباب العالي . والثاني ان يؤمنوا على ارواحهم  
ان يأتهم العفو . فقال له الوالي احمد باتا اني اسمح لولاة العصاة ان يقيموا في دار  
تنصلية الى ان يصل فرمان العفو من الباب العالي وأطلق كل اقرارهم الدين قبض عليهم  
دعهم يقيمون معهم في دار التنصلية

فبعث السيور ود ترجمانه الى حوران ومعه امر الوالي بالمهادنة الى حين وصول العفو  
الاستانة وكتب معه الى الامراء والمساح صامتا لهم سلامتهم ساء على صيانة الوالي له  
اصحاهم لكي يسلموا وينزلوا الى دمشق . وسد ايام قليلة عاد الريحان ومعه الامير اسعد  
هاب ( وكان قد انضم الى الدروز لاهم رعدوه بالولاية على الجبل ) والشيخ يوسف عبد  
ك وغيرها من مشايخ الدروز وسبعائة من اتباعهم . ومضى السيور ود الى الوالي بمشايخ  
روز فرحب الوالي بهم واعطى كلا منهم تالاً من الكسوير علامة العفو والرضا . ثم وصل  
بة الدروز فصاقت مهم دار التنصلية ورأى السيور ود انه يستحيل عليه ان يبرهم كلهم في  
ره الى ان يرد العفو من الاستانة فسمح لهم الوالي بالعودة الى بلادهم ما عدا سبعين من  
اسائهم بقوا في دمشق منتظرين فرمان العفو . وبعد تهرير حاء الفرمان المنتظر وفيد امر  
ريح بالقبض على اولئك المشايخ وقتلهم وارسال رؤوسهم الى الاستانة وكان احمد باتا قد  
ل من ولاية دمشق وولي علي باتا بدلاً منه . فحاء كاحيته الى دار التنصلية فلما اتهم ما في  
يمان وقال لمشايخ الدروز على م اقطعتم عن التردد على دوله الوالي فتمه لوه واتربوا بحاج قهوة  
عدع الشيخ يوسف عبد الملك بهذا الكلام وسار معه الى دار الولاية فقبض عليه حالما  
لها وبلغ السنور ود ذلك دهرح الى دار الولاية واجى ان يجلس الا ويطلق سبيل الشيخ  
ناره الوالي عصيون الفرمانم قرأه له بالتفت الى احمد باتا وكان حاله مع طلى اتاوقال  
كيف كان الاتفاق بيني وبينك ألم يكن على كذا وكذا وقص على علي باتا واقصة الحال  
نال لا احمد باتا انك لو دكرت للباب العالي واقصة الحال كما وقصت مما ما الفرمان بالعفو  
أ . فاجاب احمد باتا اني دكرت لهم كل ما حدث بالتدقيق فكانت النتيجة كما ترى .  
ل علي باتا لا بد لنا من العمل بالامر العالي

فقال السيور ود ان استطعتم ان تفعلوا ذلك فافعلوا ولكن اعلموا ان انكثرا لا تحصدمة  
ل من قاصلها

ثم احدم الجدل بيته وبنهم، سلات . سلات بلى غير عاين وانيرا اقلالا لثة انك ان لم  
لثنا كل الرجال الذين عندك رضى - خضرت ان رسال قوة عسكريا واستياهم عنوة

فاطرق برهة ينكر في . مرد ثم قول نعي . سلات نعي امدق، منذ عيد طويل ولي عليك  
يل لا تنكره فاذا كان لا بد لك من اعمد حسب مر لدرية ورجومن فضلك ان  
نرني قبل ارسال القوة العسكرية بنصف ساحة حتى خرج انسا . والامل من دار القنصلية  
فقال له علي باتسا وهل مرادك ان تقو منا . قوة

فقال القنصل حتما ولا بد لي من الدوع عن تعرف المنصية ولا يمكن ان تمسوا احدا  
كل الذين في حمانا ما دمت في قيد الحياة وانت تعد ما ينعل اس مسألون متلا اذا  
عنا في اليأس ولا يخفى عليك ان الدولة لانكليزية لا تدع تقطة من دمنا تذهب هدرأ  
ذا شئت ان تلقي دونك في المشاكل وعل ما تشاء

ثم نهض وضم بالخروج فطلب اليه علي باتسا ان يقبل واحد يكرفي امره ثم قال له اني  
برف الانكليز واعرف مقدرتهم ولا اريد ان اكون سبب خلاف بينهم وبين دولتنا العاية  
خذ العهدة على تنسي ووقف الامر العالي وغاينة ما يصيبني الزل او الابعاد وحماهمون  
ن حرب دولية

ثم امر بان يطلق سبيل الشيخ يوسف عبد اللهك فعاد الى دار القنصلية سنة من  
قواسة . واجتمع اهالي دمشق يرون مقدره فنصل الانكليز ولعجبون بها

قال المتكلم ببقينا في دار القنصلية سبعة ايام لانني كنت في حجره من الجأ اليها الى ان  
باء العفو من الاستانة وقد بلغنا ان العفو صدر منها براسطة سفير الانكليز نادا كان قاصل  
لانكليز وسفراؤهم يحدوننا ويدافعون عنا ايننا كنا كيف لا نسمع مشورتهم ولا نعمل  
سبب ارادتهم

وكان المتكلم شيخا جليلا مسموع الكلمة وكانت هذه الحادثة معروفه عند بعض الحضور  
شهدوا بصحتها وكاد ينفذ الاجتماع على ان لا يحركوا ساكنا ولا يأتوا عملا من تأبه ابارة  
حرب اهلية في البلاد ولكن قال واحد منهم قبل انقضاء المجلس سب ان خدومنا اعدوا  
لبينا وتكرر اعنداؤهم فهل نصبر على الضيم فأجاب اكثر الحضور كلاً كلاً . ثم اتفقوا على ان  
يرسلوا خبر ما قرء عليه قرارهم الى الخلوات كلها في الجبل ووادي التيم وحوران

سأاتي البقية



## الفصل الخامس

## سورية في البرلمان الانكليزي

غطى الضباب مدينة لندن ووقفت المركبات عن السير والناس عن المتي ولم تعد اصابع  
تُرى في الشوارع فلم يصل الأعضاء الى دار البرلمان الا بتقى الائنس . ولما انتظم عقدهم  
وجلس كل في مكانه حسب درجته دارت المجادلات على نتائج الحرب بين النمسا وسردينيا  
ومعاهدة زورك وتنازل امبراطور النمسا عن لمبرديا للامبراطور نپوليون الثالث الذي اعطاهما  
لسردينيا وعلى ماجريات الحرب الاميركية الاهلية والقبض على جونا بروف الذي عم  
الترسانة الاميركية بعد ان قُتل نصف رجاله وتلى ما جرى لسفراء انجلترا وفرنسا واميركا  
في بلاد الصين وهم ذاهبون الى بكين فصدرا عن دخولها . وطال البحث في هذه المسائل الى  
ما بعد نصف الليل

وكان العضو النائب عن لنكشير قد طلب من تجلس النواب ان ينظر في ما ساع من  
قرب نشوب الحرب في سورية وعما يقال عن دسائس بعض الدول الاوربية رغبة في احته دل  
تلك البلاد واقفال ابوابها دون التجارة الانكليزية . فلما ساءت الفرصة للمناقشة في هذا  
الموضوع نهض وقال ان لنا في سورية تجارة واسعة فرسل الى مدينة بيروت في السنة ما تارة  
اكثر من ستاية الف جنيه فاذا نتبت حرب اهلية هناك بارت تجارنا راذا اسولت علينا  
دولة اوربية فقولوا على تجارتنا السلام . وانا اسأل الرئيس عما عنده من الاخبار في هذا  
الصدد وعن التجهيزات التي اتخذتها الحكومة لمنع هذا الضرر عن التجارة الانكليزية

فقال الرئيس ان الوزارة مهتمة بهذا الاسر تمام الامماد وتم عقدت لجنة للبحث في  
عملت امير البنين لا تفنى اطراح لمجلس علي

فقال السيد اسالا كيتي . حار من اجل ان لا يجرى في سورية حرب أهلية بل ان يجرى  
لها باخبارها من اسبوح ونس لها كما فعلها الوزارة ولما يهدا انب تتخذ التجارة الانكليزية  
اللازمة لمنع الحرب الاهلية وار تذكر الحكومة الطامعة بانها لن سورية بقوة ف يدها عبر ذلك  
فقال الرئيس ان الوزارة مهتمة بهذه المسائل كلها وهي ترحوان تطرح على المجلس نتيجة  
اعمالها بعد وقت غيد بعيد . بلا يحيى على حضرة العضو الكوچم ان الوزارة تهتم بكل اسر  
علاقة بنا ولكنها لا تكفل النجاح في كل امر لان زمام الدنيا ليس بي يدنا

ونهض المستر غلادستون حينئذ وكان ناظراً للامية وقال ان مالية البلاد لا تمكن الوزارة

من عمل كل ما نتمناه ولكن وزارة لا تنس بذلك من ان كان سابقا  
 وحفظ متاجرها . ثم قل ولا يخفى على حضرة العثمانيين كبريت حيوت  
 الصين مع جيوش الدولة التي اتسرت اليها ولا كين مصبوة وحدة وا  
 في عمل يكون من وراء الاضرار  
 ففهم الاعضاء مع كلامه تهدبدا حميا وكس سليف لا يواحد  
 وفي اليوم التالي اجتمعت اللجنة برئاسة لورد رسل وزير الخارج  
 سفير انكلترا في الاستانة عن تورة الافكار التي يراد بها حلح السلطن  
 كانت ولو بالتنكيل بالمسيحيين حتى تمهض دول اوربا وتمتصر لهم . و  
 بيروت عن سعي فرنسا المتواصل في تحريض موارد الجبل على .  
 نظرت في تقرير غرفة التجارة عما تستورده سورية من منسوجات انكل  
 الصوف وعرق السوس . وبعد بحث طويل في هذا الموضوع قرأ  
 سفيرها في الاستانة والى سفيرها في ريس وحلاصة السعي في  
 واسطة ممكنة وحمل الدروز على الاخلاص الى السكينة وعدم الاعتراف  
 يعدونهم بالمساعدة

وفي تلك الليلة اجتمع جماعة من المالميين عند واحد منهم ودار  
 الذي عقدته فرنسا والقرض الثاني الذي طلبه فكتور عما نويل ملك  
 ضم ممالك ايطاليا بعضها الى بعض  
 فقال احد الحضور واسمه ابن حاييم ان القرض الاون مكن فكة  
 على النمسا فاذا تيسر له بهذا القرض الثاني ان يضم ممالك ايطاليا به  
 ملكا عليها كلها تكون قد خدمنا امرة ساقوى خدمة لا متيل لها جز  
 وقال آخريس من غرضنا ان نخدمه او لا نخدمه بل ان نستقرا  
 عليها فيها . اما فرنسا فماليتها ثابتة وشعبها مجتهد مقتصد ولا خوف على  
 ايطاليا فبلاد فقيرة واكثر خيراتها تذهب الى خدمة الدين فيها . و  
 تطول عشرين سنة اخرى لوثقنا انه يصلح البلاد وبني مالية الحكومة  
 واحوال ايطاليا لا تزال مرتبكة والسلطة الدينية قوية فيها فلا يحسن  
 وبعد اخذ وعطاء في هذا الموضوع اتفقوا على ان لا يكتبوا باء  
 ثم قال ابن حاييم كتب الينا الخواجه بخور من دمشق ان ال

ن علي ما يرام وان دروز الجبل يستعدون للحرب الاهلية وقد استدان رؤسائهم منه نحو  
بن الف جنيه بربا عشرين في المئة وطلبوا مئة الف جنيه اخرى وهو لا يرى مانعاً يمنع  
هم اياها لانهم وعدوه برهن ضياعهم في البقاع وهي تساوي اضعاف ذلك . والدروز  
ون في ذمة انكلترا فلا يجسرون ان يهضموا لنا حقاً عندهم  
وقال آخر انني التقيت منذ ساعة باللورد فلان فاخبرني ان الوزارة بادلة جهدها في منع  
ب الاهلية من سورية وقد ارسلت الاوامر المتشددة الى سفيرها في باريس وسفيرها في  
تانة ليبدلا جهدها في ما يمنع اثاره الحرب

فقال ابن حابيم ان تم ذلك فهو اصلح لما وان لم يتم ونشبت الحرب فلا بد من ان تلجأ  
ة العثمانية الى التعويض على المنكوبين وخزائنها فارغة فينتفع امامنا سبيل آخر للكسب

## الفصل السادس

### النفثيش الاول

لما حان الوقت الموعود لذهاب السر هنري بدمونت الى التسويات لزيارة الامير احمد  
تيش عن المغارة التي فيها رفات جده كوت بدمونت خاطب الكولوبل روز في ذلك  
ب منه ان يسمح له بذهاب الترجمان معه لثلاً يجيد الامير احمد غائباً فينحذر عليه التكلم  
حد لانه لا يعرف كلمة من العربية . وقام في الصباح وركب جواده وركب معه الترجمان  
وقواس من قواسة القنصلات وساروا نحو التسويات فوصلوها بعد ساعتين من الزمان  
الامير احمد في انتظارهم عند نهر العديرو معه جماعة من الابرار ابناء عمه والخدم  
ثم فرحبوا بالسر هنري وساروا امامه وكان الابرار باخيلول المطهمة وقد عطوا سروجها  
نح الذهب الوهاج فوق ابد الشعر الاسود وقلدوا اعناقها برصائف من الذهب لوسواسها  
يجي تسمعه الاصائل وتطرب بد فيزيد اعجابها وتمهادها فتظنها نرقص رقصاً وهي تسير  
حتى اذا بلغوا دار الامير احمد استأذنوا السر هنري في نصب الميدان اكراماً له  
سموا قسامين وجعلوا يكرون ويفرون ويتراشقون بالجريد فطرب لذلك طرباً شديداً .  
ت الشمس قد تكبدت السماء واشتد المحير فشكرهم على ما ابدوه له وقال انه طالما تمنى  
رى سيداناً مثل هذا يلعب فيه امراء البلاد على صهوات الاصافنات الجياد . تم ترجل  
لوا ودخلوا ديواناً جلسوا فيه واستراحوا هنيئة وقدمت لهم الشربات والشبقات ومد السماط  
فاخر الطعام وأتي بعده بالخاويات وكانوا ثمانية الامير احمد وخمسة من ابناء اعمامه

والسر هنري ورحمن وكل من هنري من سكان الادي  
 الامير احمد سرور وبنو ترجمه لا  
 واستراحوا بعد ايامهم هذه في  
 لي من العودة الى بيروت التي وارحمه مره ثلث  
 ما حول بلادكم من امير نزل الامير احمد في  
 او مائتين . فقال السر هنري بل تعلق امره  
 او كان المتخ بعد اجداد

فصيح الامير احمد رقبني اجري الدم ركوبه  
 لاسيا وانا مضطرون ان بعد ريبول في كنف لا  
 وحدها قاصدين المغار التي كان الامير احمد يترجم وهم  
 القرية ودارا اي جنوبيا وشرقيا وهبط في جهنم كثر  
 الامير وكنا كلما وصلنا الى باب معرة راجع الى  
 وصف المغارة والحياة التي تطل عليها ودخلت معه  
 هذه الحال نحو ثلاث ساعات الى ان اجندتم اتعبوه  
 هنري مكانا ينطبق على الوصف الذي عنده

ويتم كان السر هنري والامير حميد يجوز ان  
 دفن فيها الكرونت بدمونت كانت الاميرة هند  
 سلفها الى نبع ماء في مكان بين كفرشيا واشويدت  
 واتي معها رجل قزم كثير المنزل والمزاح في عترة  
 خاطرا يقيم في دور الامراء للهزل والتبريح فلما وصل  
 تتخطها الجن اذا اتت وحدها فانت لي معها مع اني اك  
 ابو يوسف اعنى القلب ما وقع هذه الوقعة ولكن لا  
 فانتبرته ام يوسف وقالت اسكت يا خبيث وخذنا

الست سلى لا تصدق بالجن ولا بالعفاريت  
 فقالت الاميرة صفا دعونا من سير الجن والعفار

طول الليل

فقال القزم الحق في يد الست صفا وانا اخاف

ت هند اتاكم ضيوف من اولاد عمكم ملاً وا الدار  
فقلت فيحك الله على هذه البشارة نحن نهرب من الناس والناس تلحقنا  
فقال اذا اردت ان تخلصي منهم فلا اسهل من ذلك ديني الفقير منهم فلا تعودى  
وجهه واطلبي من الغني ان يدينك فلا يعود يرى وجهك .

فقلت اصبت وان كان فراق البدوي بعبا فلا كان البدوي ولا كانت العبا  
وقبل ان نتم كلامها وصل الامير احمد والسر هنري والرجال الثلاثة الذين معهم .  
طربت الاميرات لما رأين رجلاً بشباب افرنجية ولكن لم يطل اضطرابهن لان الامير  
كان قد اخبرهن انه لقي في بيروت عند القنصل شاباً انكليزياً من عائلة شريفة وانه  
بزيارة التسويات بعد ايام قليلة فلما رأينه ادركن حالاً انه هو الشاب الذي اخبرهن  
وتقدم الامير احمد وعرفهن به .

فنظرت اليه الاميرات معجبات من جمال طلعتيه واعدال قامته ونظر هو اليهن فرأى  
الشرقي الذي قرأ عنه في حكاية الف ليلة وليلة وكتب الروايات والرحلات وكان  
انه من قبيل الشعر والمبالغات

ودعنها الاميرة هند للجلوس معهن وترب القهوة وقدّمت لها السكاير وسألت السر  
ي عن كيف رأى البلاد وعمّا اذا كان معه احد من اهله وطلبت اليه ان يزورهم  
يفهم تلك الليلة . وكان الامير احمد يترجم بينها وبينه فاجابها السر هنري انه آسف  
تقل عليهن بجيئته اليهن في تلك الساعة ولكنه سرّ جداً برؤية الاميرات الشهابيات  
كان يحسب امهن يتحجبن مثل سائر ساء الجبل فاذا هن مثل الاميرات في بلادهم  
نورمن محارقات الله من نزهن كما لا تحرم الشمس النبات من باهر اشعتها

فسرت الاميرة هند بهذا التشبيه واطرت صفا وسلمى اليه باسمتين تم اطرقنا حياء اما  
م كان يتأخر الى الوراى رويداً رويداً وهو يزور بعينيه ويقلب سفتيه . والتفت اليه  
ير احمد وقال له مالي اراك تهرب منا يا عنتر

فقال متى حضرت الملائكة هربت الشياطين . فقال الامير اذا كان يجب ان تهرب  
عجبتنا

فقال عنتر كنت عازماً على الهرب ولكن ام يوسف مسكتني لانه لا يطيب لها عيش  
بعد عني

فقال ام يوسف اسكت يا لعين وخلصنا من شرك فانت في كل عرس لك قرص

والتفت السر هنري الى الامير احمد كأنه يستفهم منه عمّا يقوله الفزم فترجمه له فضحك وهو يقول في نفسه هذا مجلس من مجالس الامراء حقيقة وهذا من الافزام الذين لا يناو منهم مجلس اس من مجالس الملوك

وكان الخدم قد غلوا القهوة وارادوا تقديمها للسر هنري قبل غيره فأبى إلا ان تقدم الى الاميرات اولاً . فقالت له الاميرة هند اذا العادة عندكم مثل العادة عندما تقديم الاميرات علي الاعراء . وترجم له الامير احمد ذلك وقال له ان هذه هي العادة عندما ايضاً ولكنها خاصة بالاميرات واما سائر الناس فرجالهم مقدمون على النساء في كل شيء . فحجب السر هنري من ذلك وقال اذا لم يفضل اميرات الشرق إلا لان حقهن في التفضيل اتبت من ان ينكر وكان مجلسه مواجهاً لمجلس الاميرة سلى فلم يسهه إلا النظر اليها مرة بعد اخرى فصنع الحياء وجنتيها وزادها جمالاً على جمال . ولحظ خرج موقفها وتعر من نفسه انه في موقف تذوب فيه العج فنهض واستأذن في الانصراف فنهض السيدات اجلالاً له فودعين مصافحة وعاد ادراجه هو والامير احمد وهو مبلى الافكار وخاف ان يظهر امره فجعل يحاول جمع افكاره المشتتة وهو ينظر الى ما حوله فيرى صوراً تمر امام عينيه ولا يفقه لها معنى الى ان وقعت عينه على نبات صغير الورق له ثمر احمر كحبوب المرجان فوقف وقال للامير احمد انظر هذا نبات الفوة الذي يستعمل في الصباغة وهذه اول مرة رأيتُه نباتاً وكان عارفاً بعلم النبات مغرمًا بجمع الحشائش فاخذ يصف بعض ما يراه منها لكي يحكي ما به من تبلى الافكار

ولج عليه الامير احمد لكي يبيت عنده تلك الليلة وارسلت امة تلج ايضاً فاعتذر بانه لا بدء من عودته حالاً لكي يكتب مكاتيبه لقيام سفينة البريد في الصباح لكنه وعد بالعودة في الاسبوع التالي لاستئناف البحث عن المغارة

### الفصل السابع

#### مطرح النظر

التنازع سنة الكون به ارتقت انواع الحيوان والنبات واليد مرجع التفاضل بين الشعوب والامم . وهو شامل لاعمق عواطف النفس كما انه عام لما في الكون من العوالم كان السر هنري بدمونت مغرمًا بابتنة خاله اقلين برادن يراها عين الكمال وجمع الجمال وهي تدل عليه ولا ترى في قلبها ما يجذبها اليه لانها رأت منه سيراً على غير الطريق السوي مثل

أكثر الشبان الذين يربون في نعمة وينغمسون في الملاهي . فان امه أرسلته الى مدرسة أكسفردي وقطعت له مئة جنيه في الشهر فكان ينفقها وينفق فوقها وهذا شأن أكثر الشبان في تلك المدرسة . وكان قليل الدرس ولكنه ذكي الفؤاد فحصل ما يكفي لتيل الشهادة وخرج من المدرسة ولا يطعم له في الدنيا الا ابنة خاله فلا يرى غيرها ولما رأي منها الدل والصدود رهن نفسه لمثيئتها واقطع عن الملاهي وعكف على الدرس وطلب المعالي ولا غاية له الا رضاها حتى حسدها عليه انزاجها . اما هي فبقي الدلال شأنها والنعيم ديدنها . وحدث ذات يوم ان ذكرت القاب الشرف واساب الشرفاء فقال ان جدّه كان مع الملك ركاردي ملك الانكليز الملك بقلب الاسد وانه كان فارساً مغواراً وانعم عليه الملك بقلب كونه قبل وفاته فتبسمت اقلين قائلة اراك تصدق هذه الاقاصيص الموضوعه كأنها حقائق راحنة

فقال لها هذا ليس من الاقاصيص الموضوعه بل هو خبر تات بالسند المتصل واما اصدق ولف كما اصدق اصدق الداس . والفارس الباسل لا يكذب ولا يبحاق الاخبار . وقد ذكر ولف في الخبر الذي نقل عنه انه وضع وتيقه نقب جدي على صدره لما دفنه وهذا كلام من رأي بعينه وليس بيده . نعم ان متحده هذا اللقب غير مذكور في سجل الالقاب ولكن اي سجل يحفظ بالتدقيق والناس في دار الحرب . ولم تصف الايام لقلب الاسد بعد رجوعه وخلاصه من الاسر حتى تطالبه عائلتنا باتبات ذلك في سجلات الحكومة فبقيت اقلين على ربيها وقالت له انت انت وجدت الوثيقة اثبت الكونمية لك لانك الوارت الوحيد له الآن

فقال نعم وسأعمل ذلك وابذل دونه كل مرتخص وغال ان كان يرضيك وكانت نتكلم معه على سبيل المراح اما هو فاخذ الامر بالجد وجعل يفتش في كتب الاسباب والتواريخ وعقد النبة على الذهاب الى سورية ليفتس عن الوثيقة فيها . وكان قد انتظم في وزارة الخارجية طلب ان ينقل الى بلاد الشام فنقل اولاً الى الاستانة ثم الى مدينة بيروت وامله معلقه باكتشاف الوثيقة وارضاء ابنة خاله وهو لا يرى غيرها امام عينيه . اما الآن فعاد من السويقات على غير ما ذهب فقد ذهب اليها وفي قلبه شخص واحد وامام عينيه مطلب لا يرى سواه وهو ان يعود بالوثيقة فترضى ابنة خاله عنه وترفع منزله في عينيها وعاد وقلبه يتنازع شخص آخر شخص الجمال والدلال فتاة لم ير اجمل منها في بلاده ولا في غيرها فتاة من نسل الامراء الذين حاربوا فرسان الصليب ودحروهم في بلاد الشام . ولقد ربي مع ابنة خاله وشب معها واحبها كما يحب الاخ اخنهُ ولكنه كان يشعر دائماً انها بعيدة عنه

وازداد البعد بتقدمهما في السن فظن انه لم يملأ عينيهما لسيرو في طرق لا ترضيها فغادر اسلوب معيشته وبذل جهده في مرضاتها . وكما ظن انه بلغ المراد رأى انه لم يزل حيث كان بالنسبة اليها لا هي تقصيه ولا هي تدينه لكنه لم يفتش ولا قطع الامل وقد تحمل مشقة السفر الى بلاد الشام قربة منها وزاني

والآن شعر كأن آماله كلها كانت امانى واقلين لا تحب الا كما تحب الاخوت اخلافا تهتم بامرهم وترجو له الخير والفلاح فحزبت لحزبه وتفرح لفرحه . نداءم اذا اصابه مكروه وتفخر اذا فعل فعال الكرام وتشدبه بنفسها اذا وقع في شدة ولكنها لا تلتقي اعتمادها عليه ولا تحسب انه الرجل الذي يكفلها في السراء والضراء

ثم قال في نفسه ولكن من هذه الاميرة ومن هم قومها وما هي اخلاقهم واطوارهم ومن اي مذهب هم وكيف ينظرون اليّ وقد لا اراها بعد الآن وقد تكون مخطوبة او متزوجة وقد يكون اهلها ارفع مني حسبا ونسبا فلا يتنازلون لمصاهرة الناس مثلنا . كنت استطيع ان اسأل الترجمان عنها ولكنه بعد ذلك فضولا مني . ولا يبعد ان تكون خطيبة للاخير احمد وهي ابنة خالته ولعلها احمرّت لما رآته . لم نتكلم على مساعي غير كلمة واحدة حينما عرفها بي فقد قالت بالفرنسوية انها تسر بمعرفتي . ما امر هوؤلاء الفرنسيين في تعليم لغتهم ونشرها في الآفاق . هذا كله فعل الرهينات . يطردونهم من بلادهم وينفقون عليهم في سائر البلدان لينشروا فيها لغتهم . لا بدّ من ايضاح ذلك لنظارة الخارجية حتى تهتم حكومتنا بنشر لغتنا اهتمام الفرنسيين بنشر لغتهم

ساكتب لامي عن هذه الفتاة وهي ثقرأ كتابي لاقابن فتشور الغيرة في قلبها ذلك القلب الطاهر . قوتل الرجال ما اقل وفاءهم . لا لا لا انساك يا اقلين ابدًا . ان افكارى بهذه الاميرة السورية من قبيل الجنون الوقتي الذي يعترى الشاب . دقائق جديدة تكوّنت في دماغى كما يقول العلماء ارتسمت فيها اول صورة وقعت عليها لكنها تزول سريعا كما ارتسمت سريعا

خطرت هذه الخواطر على بال السر هنري وناجى نفسه بها وهو ماسك القلم وعازم على الكتابة لامي ونظر الى ساعة امامه وقال حسبي من احلام الصبا وانقض رأسه مسرعا كأنه يجزر ذبابا حطّ عليه وغرضه نزع هذه الافكار من باله وشرع في الكتابة فملا صفحات كثيرة وصف فيها كل ما لقيه في ذهابه الى الشويفات ورجوعه منها



## الفصل الثامن

## الاجتماع الثاني

عاد وكلاء الدولة والعلماء الى الاجتماع في دار رشيد افندي وكلهم متشوف الى الاطلاع على ما فعلته اللجنة التنفيذية التي شكّلت لاجراء ما اقروا عليه في اجتماعهم السابق وعلى ما ورد عليها من اشياهم في سورية فقرأ كتاب وارد من دمشق مؤداه ان سكانها على اتم الوفاق والوثام وانه يتغذر ايقاظ الفتنة فيها لا سيما وان اميراً من نزلائها لا يستحل خفر ذمة احد بوجه من الوجوه ولا يصدق ان ما طلب منه يعود بالنفع على احد . واعوانة اشداه يفعلون كل ما يأمرهم فيستطيع ان يجمي بهم المدينة كلها

ولما قرى هذا الكتاب ضحك احد المأمورين وقال ان كانت كل الكتب التي وردتنا على هذا النسق فلا فائدة من قراءتها غير التضييل فان الامير هو الذي اشار على فرنسا باحتلال سورية وارشدها الى السبيل المؤدي الى ذلك فوعدهت بجعله اميراً عليها

فناقضه مأمور آخر وكثر الحجاج واللجاج بين الطرفين الى ان تصدى لها احد الحضور واطلعهما على كتابة معه من سفارة باريس فنظروا فيها ثم نظر بعضهم الى بعض وسمتوا وقرى كتاب وارد من بيروت وكلة امل وتأكيد وتفاؤل بنيل المراد . فقال احد العلماء اوصوم ان لا يسرفوا . ثم قرى كتاب وارد من لبنان يشكو كاتبه فيه من احد المأمورين ويقول اننا نظنه جاسوساً وطلب ابعاده فكأف احد الحضور بالسعي في نقله الى ولاية اخرى ودار الكلام على الخطة التي يراد اتباعها في كل انحاء الولاية بناء على الكتاب المسهب المرسل من سفارة لندن . ومدار هذه الخطة اثاره الرأي العام الاوربي باعمال تستفز الاوربيين الى التداخل ولا خوف من فوز المعتدى عليهم لان دولة عظيمة ستمتهم من ان يعضدوا بعضهم بعضاً ولا يتسع لها مجال التداخل لان الدولة المناظرة لها توقفها عند حدها وتحبط مساعيها وتمنعها من ازدراد اللقمة التي اخطفتها فتحصل الغاية المطاوبة من غير ضرر كبير وكان بين الحضور رجل اشيب تدل ملامح وجهه على انه عرك الدهر وذاق ما فيه من خل وخمر وكان صامتاً لا يتكلم ولكن وجهه يدل على انه كان يتتبع المتكلمين ويزن كل كلمة فلما رأى انهم فرغوا من الكلام التفت الى رئيس المجلس وقال لقد علمتنا التجارب ان العامة لا تقف عند حد محدود اذا أطلق لها العنان والذي اخشاه هوان النتيجة لا تكون حسب لتقدير فلوننا بغيتنا وافتديناها برجل او رجلين او عشرة او مئة لمان الامر وقلنا ويل اهون

من ويلين ولكنني اخاف ان نطلق العنان للغوثة فيسرهم في القتل والتنكيل فتفقد البلاد جانباً كبيراً من سكانها الذين عليهم اعنودها في الصناعة والتجارة ويتسع المجال للتداخل الاوربي فوق ما تريد . فمهما بالغت في التحذير كي لا يسرهموا لا يوفي الامر حقة ولا بدءا لما من انتداب اناس يعول عليهم لكي يديروا هذه الحركة ضمن حدود المعقولة فوافقوه على رأيه وانتدبوا ثلاثة ارسلهم الى بلاد الشام لهذه العاية

في الليلة التي اجتمع فيها وكلاء الدولة في الاستاة للطرفي امر بمكنهم من ابدال الحالة الحاضرة باصلح منها اجتمع ثلاثة من المرابين في بيت الخواجه بخور بدمشق والبيت في حي اليهود يوصل اليه بزقاق ضيق لا يسع الا اثنين يمتمان معاً وكذلك باب البيت ضيق واطى يضطره الداخل منه ان يجني رأسه حين دخوله ولكن البيت واسع رحب في داره فسقية كبيرة يتدفق الماء منها والارض حولها مرصوفة بالرخام المنجوع وفيها دوائر غرست فيها اشجار الليمون والريحان وامامها ديوان عضائده من الرخام الناصع البياض واواب الغرف التي حوله يحيط بها قوائم من الرخام المنقوش نقشاً بديعاً يمتد بعض شرفات لها اساطين وحنايا مفرعة ويدخل من هذه الابواب الى غرف كبيرة مفروشة البسط العجمية على جوانبها مقاعد من الخمل المعرق او الحرير المحجر تنار بمصابيح مدلاة من السقف زجاجيا ملونة . وفيها منصات عليها مصابيح اخرى من نوع الطلبا يوقد فيها زيت الزيتون . وفي وسط الغرفة كانون كبير من النحاس الاصفر او قدت فيه نار الفحم لتدفئتها . فدخل الثلاثة غرنة من هذه الغرف وتداولوا في الانتقال الى بيروت لان اصدقاءهم في اوربا ولا سيما في باريس ولندن كتبوا اليهم انه يخشى من حرب اهلية في بلاد الشام وهم لا ناصر لهم ناية فنة علبت تطمع باموالهم وتسلبها اما بيروت فلا يخلو مرفاؤها من سفينة اجنبية بلجأون اليها اذا دعت الضرورة وقال واحد منهم اني لا ارى ما يخشى منه فبالامس استدان امير من امراء لبنان عشرين الف غرش من محلنا في بيروت لتزويج ابنته فما دام الناس يهتمون بالانفاق على افراحهم فهم غير مشغولي البال بامر مهم مثل الحروب الاهلية فقال آخر وانا جاءني من ابن خالي في دير القهر ان الناس هناك لاشغل لهم لا صب الرصاص وعمل الفسك ( الخرطوش ) وقد اخبروه صريحاً انهم ينتظرون ثورة عامة فقال الخواجه بخور وهذا هو الصواب فان عملاءنا في كل مكان يقولون ان الفتنة كامنة الآن كالنار تحت الرماد ولا بدءاً من ايقاظها قريباً ورأى ان نستشير الامير المغربي في امر انتقالنا فاني اعتقد فيه الاخلاص . فاجمعوا على ان يستشيروه ويفعلوا حسب مشورته

## الفصل التاسع

## العرس والميدان

خُصَّت بلاد الشام باقليم لا اعدل منه على وجه البسيطة ساحلها من المنطقة الحارّة بنبت فيه الخيل والصبر والبرنقال ويقتني سكانه الابل لحمل اثقالهم . وجبالها يكللها الثلج اكثر فصل الشتاء والربيع وينبت فيها الارز والبربريس ونقيم فيها الدباب والارانب . والبلاد بين بين الاعتدال بعينه لا ينبت نبات في المنطقة المعتدلة الا ويجود فيها - النين والزيتون والكرم والتوت واللوز والجوز والشمش والتفاح والليمون والرمان والصنوبر والسنديان والدلب والشربين والورد والياسمين . كل شجر مثمر وغير مثمر وكل نبت مزهر وغير مزهر . فصول اربعة تتوالى في مواقيتها كأنها جارية على قواعد الحساب . الخريف بوسميه يعد الارض للزرع والشتاء يمزقه يخرق طبقاتها ويروي جذور اشجارها ويمد مياه ينابيعها ويفعم غدرانها وانهارها ويأتي الربيع بشآيبه فيروي نباتها حتى يزهر ويثمر تمسك السماء عن المطر ستة اشهر متوالية بين الاعتدالين من اواسط الربيع الى اواسط الصيف فتتضج الاثمار وتيسر الاعمال واذا ترفه المرء واراد الابتعاد عن الساحل فلا اكثر من ان يسير ساعتين فيصل مكاناً هواؤه عليل وماؤه نعيم كأنه انتقل من وادي النيل الى جبال الالب

ولكن مهما كثر الخير والمير في بلاد صغيرة كبلاد الشام لا تستوفي اسباب الحضارة ما لم يكن لاهلها بضاعة يعجرون بها حتى يشتروا بثمنها ما لا يجدونه في بلادهم من الحاجيات والكاليات فاذا كثر عندهم الحديد فقد ينقصهم النحاس واذا كثر الحرير فقد ينقصهم الكتان واذا كثر الفضة فقد ينقصهم الذهب . ولقد كان السوربون اهل تجارة من قديم الزمان بل هم اول من ركب السفن وخاض البحار وضرب بالقوافل شرقاً وغرباً وامتدت تجارتهم من الهند الى اسبانيا على طول نصف الكرة الشرقي وساروا بسفن سليمان الى جنوبي افريقية وما ذلك الا لانهم وجدوا في بلادهم من البضائع ما تروج سوقه في سائر البلدان . ونقلت الدول وكرت القرون بغيرها واهالي الشام يسعدون ويشقون ولكنهم لم ينفكوا عن التجارة برّاً وبحراً ومرّت بهم سنون نشيب الولدان وابتلوا بولاة كلنهم زبانية الحجم ولكنهم لم يفقدوا خصب ارضهم وكبر هممتهم

الزمن الذي حدثت فيه حوادث هذه الرواية سبق بقرون كلها ظلم جور وارهاق تلتها فترة صغيرة ساد فيها الامن الفترة التي استتب فيها لاصر اللابير بشير الشهابي المعروف

بالكبير ثم لبرهيم باشا ابن محمد علي باشا عزيز مصر. في هذه الفترة عاد الناس الى زراعتهم وتجارهم فنتقبوا اراضي الساحل وزرعوا فيها التوت وربوا دود الحرير وبعثوا به الى فرنسا فتدفقت عليهم ميازيب النصارى . رجل واحد من اهالي عمشيت لا من الامراء ولا من المشايخ كسب من تجارة الحرير ما استطاع ان يوفي به الاموال الاميرية عن بلاد البترون وبلاد جبيل وبلاد الفتوح دفعة واحدة . هذا الرجل واسمه ميخائيل ضوبيا اقام في عمشيت قريته وجعل يشتري الحرير من اهالي البلاد المجاورة ويرسله الى مرسيليا وبلغ من علو هممه انه كان يملئ على خمسة من الكتاب في وقت واحد كانه نبوليون الاول . ولا يستطيع الانسان ان يدير الاعمال الكبيرة الا اذا كان كبير الخمة

واقنتى غيره قوافل من الجمال او البغال لتقل بضائع المشرق الاقصى من العراق الى دمشق ومنها الى ساحل بيروت وحمل بضائع اوربا الى داخلية البلاد لتقلها الى المشرق الاقصى . فلا تمر بك ليلة الا وتسمع غناء الكاربن يحدون لجملهم واجراس بغالم تحيي ظلمة الليل وتطرب آذان النيام فتتدفق بناييع النصارى على جانب كبير من السكان . خلة جرى عليها اهالي الشام من عهد الفينيقيين واستمروا عليها اكثر من ثلاثة آلاف عام يسعدون بها آونة ويشقون اخرى والدهر في الناس قلب

وكان امراء لبنان قد ذاقوا لذة الراحة بعد طول الكفاح وباروا الفلاحين وسبقوهم في زرع التوت وتربية دون الحرير فصارت مزارعهم في البقاع تاتيهم بما يحتاجون اليه من الحبوب وحراجهم في الجبل تسوم فيها قطعانهم ومواشيهم وبساتينهم في الساحل يربى فيها الدود ويعصر منها الزيت فتمتعوا برفاه العيش وظهر ذلك في اعراسهم ومامتهم وكانت الاميرة صفا مخطوبة للامير قاسم من امراء الحدث وجاء الوقت المعين للاحتفال بزفافها اليه فجاءها التجار والصاغة من بيروت بالاطالس والمقصيات الحليية والحلى المختلفة من عقود وقلائد وخواتم واساور واقراط وفضائير مرصعة باللؤلؤ والماس والياقوت واهدى العريس اليها هدايا فاخرة من انسجة دمشق ودير القمر ومصوغات بيروت وصيداء . وجاء اليوم الموعد للخروج بموكب العروس من كفرشما الى الحدث وهو يوم احد قبل الصوم الكبير وكانت الاميرة جلنار ام الامير قاسم تخاف ان يكون يوم العرس يوماً مطيراً فنذرت لمار انطونيوس انه اذا كان اليوم صحواً تصنع له اكليلاً من الذهب وتعلق امامه قنديلاً من الفضة . وعلم المطران بنذرهما فلما انجس المطر من اول الاسبوع وغابت الشمس يوم السبت تحيط بها غيوم حمراء خاف ان ياتي الامر على غير ما يود ولكن اصبح الصباح يوم الاحد ولا غيم في السماء

ولا ضباب في الجو وفاضت اشعة الغزالة على ربي لبنان وانتشرت على ساحل بيروت  
 وفاخر بحر الروم لون سماءه وسارت جواريه عليها المطارف  
 وسالت على الكشبان غدران عسجد من الشمس فيها الظل غرثان وارف  
 وساحل بيروت الخصب ونهرها وتلك الروابي والقرى والصفاف  
 بساط وسيف والنهود ولؤلؤ نضيد على صدر الربي متراصف

وكان الامراء آل شهاب وآل ابي الملع قد وفدوا الى الحدث من جهات مختلفة اتى كل  
 منهم بموكبه من الخدم والحشم فلم تعد تسمع الا صهيل الخيل واطلاق البنادق واصوات  
 الطبول والدفوف والزمور وكما وصل وفد منهم قوبل بالاغاني والزغاريد وقام المعطر وبجامر  
 البخور واجتمع اولاد القرية ووقفوا عن كشب مبهوتين مدهوشين والسعيد منهم من اعطي  
 فرسا يمشي به اما آباؤهم فقاموا على خدمة الضيوف والاتباع كأنهم كلهم من خدم الامير  
 وقام الامراء في الصباح واعلوا صهوات خيولهم فتألف من ذلك موكب كبير يأخذ  
 الطرف مهابة وجلالا سارت في مقدمته الاميرة جلنار ام الامير قاسم على جواد اشهب يتهادى  
 بما عليه من الحلى والى جانبها اثنان من خواص اهل القرية ماسكان بركابها ووراءها سائر  
 الامراء وامامهم وخلفهم خلق كثير فيه المغنون والمطبلون والمزمررون . وسار هذا الموكب  
 الهوينا وكما مر بييت قابلته نساءه بالزغاريد وقام ماء الورد الى ان خرجوا من بين البيوت  
 وساروا في الارض البراح بين الحدث وكفرشيا وكان الماء قليلا في نهر الغدير فقطعوه  
 ولقوا هناك وفدا من كفرشيا آتيا لاستقبالهم والترحيب بهم فتصالحوا وهم على ظهور الجياد  
 واكثر رجالم من اطلاق البنادق ثم نصب الميدان في سهل فسيح على خفة الغدير فانقسم  
 الامراء فريقين وجعلوا يترامون بالجريد يهجم الفارس منهم والجريدة في يده ويرمي بها  
 خصمه فتخرج كالشهاب الثاقب لان زخم الفرس يضاف الى قوة الساعد ويراها الخصم مقبلة  
 اليه فيخيد من طريقها او يغطس تحت بطن جواده او يستلقيها بيده او يدفعها عنه بجريدة  
 اخرى . والفتيان من القريتين يجولون في الميدان وكما وقعت جريدة التقطوها واعطوها  
 لفارس من الفرسان . وظل اولئك الامراء في كروفر وهجوم ودفاع الى ان تصببت جباههم  
 عرقا وسبحت جيادهم في عرقها واذا بنقى بصرخ ويقول اخ يا عيني يا امي . كان هذا الشاب  
 يلتقط الجريدة فاصابته جريدة ذهبت بعينه فالتفت عليه غيره من الفتيان واتوا به الى الامير  
 الذي فخره وقالوا له انظر يا سيدي عبدك فلان طارت عينه . فقال اربطوها له ثم نادى  
 وكيله وقال له ارسل الى هذا المسكين كيس غلة وخمسمائة غرش فتقدم ابو الفتي وقبل

د الامير ودعا له بطول العمر . ومن بين يسهل الهوان عليه .  
وكان الامير احمد ارسلان في جملة المدعوين الى هذا العرس وذكروه للسرهنري  
دمونت في احدي خطراته التي يروت فود السرهنري ان يكون حاضرا ليشهد الميدان  
لعب الحرير . فدعا الامير احمد الى الحضور وكان يعمر ن اميدان سينصب على خفة الغدير  
واقام السرهنري الى كمرشيا وسارا مع امرائها الذين لاقوا امراء الخدت ووقفا يريان  
لفرسان تكرو وتفرو ولم يشتركا معهم وحاول كثير من اعراء الامير احمد النزول الى الميدان  
لم ينزل معتذرا بوجود السرهنري معه . وهو في الباض يحتي حدوث ما لا يرضاه لان  
لاحقاد الكامنة بين النصارى والندروز كانت قد احدث في الظهور . وتطول احد العتيان  
عليه ووجه جريدة اليه وهو يقول حذها يا امير احمد ولا تفل في عدرتك فاستلق الامير احمد  
الجريدة بمجن كان في يده ولم يحذه بها . وكان سا الامير عجبس احوا الاميرة سلى هناك  
نبادرا الى الذي رمى الجريدة وتكلم معه لان امهما اوجست شرا من حضور ابن احتها  
فاوصت ابنيها ان لا يفارقه وقالت لهما ان العيون محمرة ولا تده ابن خالتك وحده  
ولما انتهى الميدان واصيب الفتى بجريدة فقت عيه . فل بعض الحضور ان هذا  
الامير الافرنجي لا بد وان يكون عارقا بالطب فاتوا بالفتى اليه فطروا ادا العين قد فقت  
تماما فقال للامير احمد لا ارى ان رد النظر اليها في الامكان ولكن يجب ان تعالج لكي لا  
تلتب ويمتد الالتهاب الى احتها ثم نزع ورقة من جيبه وكتب له سطرين الى طبيب في  
بيروت ليذهب اليه بها فاخذها الفتى وقبل يده  
ثم سار الموكب في طريقه كأن عين ذلك الفتى ذبابة كانت على رأسه فاطارتها الحريرة  
عنها حتى اذا بلغ الموكب دار العروس في كفرشيا علت الرعاريد وصلقات البنادق واصوات  
الطبول والزمور وبادر رجال القرية الى استلام الحمول والمهتي بها . وتصاح الامراء ودحلت  
ام العريس واعتنقت كنتها . ثم قدمت القهوة والشبقات ومدت اسطة الطعام من الخرفان  
الحمرة والديوك المقمرة والرز المغفل والالبان والامماك وانواع الحلوى . ولما فرغ الامراء من  
الطعام جلس الاهالي والاتباع افواجا افواجا حتى اذا امتلأت الخواصر وفرغت الجفان  
انتظم الموكب ثانية وقامت العروس فودعتها الاميرة سلى وكاد يغمي عليها واعتنقتها الاميرة  
هند وهي تبكي لانها ربتها بعد وفاة امها فكانت مثل ام لها وودعها ابوها وزوجه لانه كان  
قد تزوج بعد وفاة امها . فحنقت العبرات الاميرة صفا لاسيا وانها تذكرت امها وشعرت  
حينئذ باليتم شعورا اليها لم يخامر قلبها من قبل . ثم اركبوا وساروا بها الهويتا وهم ينسدون

الاناسيد ويطبلون ويزمرون الى ان وصلوا الى دار العريس فقام المطران ولفيف الكهنة بصلاة الاكليل ووزعت الهدايا من اكياس القصب ومناديل الحرير ومدت اسمطة الطعام وزينت الدار وما حولها تلك الليلة واطلقت فيها السهام النارية

وبينا الناس في لهو وطرب يغنون ويزمرون ويطلقون السهام فتشق عنان السماء علت الجلبة والضوضاء وهجم القوم بعضهم على بعض حتى اختلط الخائل بالابل . فان شاباً كان يطلق سهماً فاصاب فتى من اولاد الامراء في راسه فوقه صريعاً وظن ابوه ان السهم ارداه فاستل سيفه وضرب الشاب به فانصر له رفاةً وهجموا على الامير وهجم اعوانه عليهم وعلا الصياح حتى اختلط الجمع كله اختلاطاً وخرج العريس ومن معه وخرج النساء ايضاً وتركن العروس في حجلتها . وكان الطلام حالاً خارج البيت الا حيت توقد المشاعل فتركها الرجال الموكلون بها واختلطوا بالغوعاء ومضت ساعتان من الزمان وذلك الجمع كالبحر الراحر تم خمد الهيجان رويداً رويداً فابجلى عن كثيرين من الجرحى والعريس في حجلتهم فانه اصيب بعصى شدخت رأسه فعادوا به الى داخل الدار ولكنهم تششوا عن العروس فلم يجدوها . وتناقل النساء هذا الخبر وبلغ الرجال فجعلوا يفتسون في جوارب البيت وغرفه وعادت الصوضاء ومضت ساعتان في التفتيش على غير جدوى

وتضاربت الاقوال حينئذ من قائل ان الحن خطفت العروس بجلاها ومن قائل ان اميراً آخر يمجها وتجبها ولكن اباهما ابى ترويحها منه فارسل اتباعه اخطفوها وهم الدين صوّتوا السهم الى ذلك الفتى لكي يخلقوا الجمع ويلبوا عنهم . ومن قائل انها كانت تريد ان تهرب ولكن اباه معها من ذلك وابى الا ترويحها فبعت الراهبات من احططها . لكن الاكثرين كذبوا هذا القول الا حير احلالاً للراهبات عن هذا الفعل امسكو . وكيفما كانت الحال فان التفتيش استمر الى الصباح ولم توحده العروس ولا وجد اثرها وقام في نفوس الاكثريين ان الجن اخطفوها

وجلست الاميرة همد مع ابنتها تلك الليلة وقالت لها لا ادري لماذا اتعر بضيق في صدري على فراق صما مع ان حمايتها تحبها كما تحب الام ابنتها وقاسم من نخبه الشبان نعم الله لا يقاس باحمد ولكنة افضل من كل اولاد عمه . هل رأيت احمد بين الحضور هو والامير الانكليزي . يظهر لي ان احمد تغير كثيراً في هذين الشهرين فصار قليل الكلام كبير العكبر فقالت الاميرة سلى الم تسمعي ما قال ابى انهم يطبخون لنا طبخة ويدبرون مهلكاً

فقلت امها ان احمد اعقل من ان يفتر نفسه من بلاد كسرى كلها قائمة قاعدة وفرنسا  
 منا والانكليز لا يساعدونهم ولو تظاهروا بتساعدتهم . ان كل احد يقول الآن ان هذا  
 لا امير الانكليزي جاء مع احمد لانه حليف له مع ان ج . كي يتعهد العرس والميدان لا غير  
 كما قال لي احمد نفسه وقد اوصيت احويت ان لا يعارقه حواء من امر تبنت . ان احمد  
 ان اعقل الشبان وهو يحبك جداً وقد قال لي بالامس انك ما عدت تأتفتين اليه  
 فصممت الاميرة سلى ولم نقل شيئاً وانتهى حديث على هذه الصورة . ولكن لما حلعت  
 بابها لتنام فكرت طويلاً في امر يشغل بالها ودرفت دمعين سحيتين تم القت رأسها على  
 سادتها وسلمت نفسها لسلطان الكرى وهي لا تعلم شيئاً مما جرى لابنة عمها

وعاد السر هنري الى بيروت تلك الليلة وجلس بعد العشاء يكتب لامير ووصف لها  
 اراءه في يومه . وصف الميدان ونعب الجريد وتهادي اجياد العربية بما عليها من السلى .  
 ملابس الامراء المقصبة . واتسار الى الفتى الذي فقئت عينه وعجب من رضوح الناس للذل  
 اعتقادهم القضاء والقدر . ثم وصف ما رآه في بيت العروس واسر في وصف المآكل  
 جلوس الامراء حول السحاط على المساند وانتقل الى وصف الاميرات وملابسهن وحلاهن .  
 كان قد رأى الاميرة سلى واقفة الى جانب ابنة عمها الاميرة صفا كأنهما ندران او لؤلؤتان  
 لا شرع سيفه وصفهما ارتجف القلم في يده وأرتج عليه فكتب يقول احاف ان اصف لك  
 جمال هاتين الاميرتين فتطلع اقلين على كتابي ونقول اني نسبتها حتى صرت ارى غيرها جميلاً  
 شلها . الجمال الشرقي غير الجمال الغربي . الجمال التترقي مسلح والجمال العربي اعزل . تظر  
 لفتاة الشرقية اليك بعينيها فتشعرين كأنها راتت سهامها ورشفتت بها اما الفتاة العربية  
 تزين في زرقة عينيها كاساً سائغة تودين ارتشافها . ثم قال

لم اهتد حتى الآن الى المغارة ولكن بلغني اليوم انهم عتروا على مغارة قرب التسويقات  
 فيها اسلحة قديمة وسامضي الى هناك في هذين اليومين . اذا وجدت رفات جدي والوثيقة  
 فسأستمي نفسي امير لبنان وآتي باقلين الى هنا فتكون اميرة لبنان هذه احلام احدس بها  
 احياناً ولكن قلبي يحدثني ان اقلين نسبتني انساها اباي اللورد كارو الذي كتبت لي عنه .  
 اخبريني عن كل ما قاله لها بالتفصيل وعن مقام هذا اللورد بين قومه فاني لا اعرفه  
 ثم ذكر لها اموراً اخرى عن احوال الجبل وثورة الافكار فيه وختم الكتاب وهو بود  
 الرجوع الى وصف الاميرة سلى وقلمه لا يطاوعه كأنه يرى حرماً حُظر عليه الدنو منه



## الفصل العاشر

## المجمع البطريكي

شمالى لبنان مقر الردة ومعقل رجال الدين . عصى قياصرة الروم ولم يخضع خلفاء المسلمين بل كان ينازعهم السلطة في بلاد الشام . وكان لامرائه السيادة المطلقة من اورشليم الى انطاكية يحاربون بني امية كما يحارب الاكفاء بعضهم بعضاً . واستمروا على ذلك الى ان وقع الخلاف الديني بينهم وبين اراخنة القسطنطينية فعاون الروم العرب عليهم وتوالت السنون وهم لا يزيدون قوة ولا تزيد بلادهم اتساعاً فضعف شأنهم ورويداََ رويداََ الى ان انقرضوا وبقيت السيادة لرجال الدين لانهم يتجددون بالانتخاب فبنوا اديرتهم على كل معقل واستأثروا بجانب كبير من املاك البلاد

في دير من هذه الاديرة فوق زوق ميكائيل شمالى الطريق الى بزمار دير بكركي لهبنة انشأتها فتاة حليية اسمها هندية جاءت كسروان واسترت اولاً دير ما عبدا المستمر وانشأت فيه الرهبنة ثم استحسن موقع بكركي وطلبت من رهبانه المقايضة فاعطتهم ديرها واحذت ديرهم وبنيت فيه بناء كبيراً انفتحت عليه اربعين الف ريال وكانت عازمة ان تزيده 'نخامة' واتساعاً فجاءته بثلاثين الف حجر منحوت وباعمدة عظيمة من الرخام . ولكن قام عليها مبغضوها وشاؤوها ونسبوا اليها السحر والضلال فاضطر البطريك يوسف التيان الى الاستعفاء لانه كان من ناصرها وحرمتها الكنيسة وحرمت اعمالها وحلت رهبنتها وبات الدير فقراً لا ياوي اليه غير اليوم ويقال ان احد المطارنة احرق الثلاثين الف حجراً كلها زاعماً ان الحرم تناولها وكان بطاركة الموارنة يقيمون في دير قنوين في شمالى لب ان فاخثاروا الاقامة في كسروان في الايام الاحيرة لانها مقر وجهاء الموارنة فكانوا ينزلون في الدير الذي يحنارونه الى ان تنصب البطريك يوسف اسطفان فعقد المطارنة مجمعاً في دير مار يوسف الحصن في غسطا حضره القاصد الرسولي وقرروا في جملة ما قرروه ان يكون الكرسي البطريكي في بكركي ثم تكرر هذا القرار في مجمع آخر ولكن لم يعمل به . فلما تنصب البطريك يوسف حبيش عمل به واقام في بكركي وحلفه البطريك يوسف الخازن فراد البناء . وامام الدير ميدان صغير في آخره شجرة ميس قديمة العهد وكثيراً ما يمشي البطريك والمطارنة فيه يتلون فروض الصلاة وفي تاريخ الدويهي ان بكركي كانت بلدة كبيرة في اوائل القرن الخامس عشر والمظهر منها جميل جداً يطل على كل بلاد الساحل من جبيل الى بيروت وما وراءها جنوباً

ان حوادث الجبل المشار اليها في النصول السابقة جعلت بطريرك الموارنة يدعو المطارنة  
وه الطائفة الاجتماع والمذاكرة سيك ما يجب عمله اذا قام الدرروز لمحاربة النصارى .  
نع لديه جماعة منتقاة لا تتجاوز اثني عشر نفساً وهم مطران بيروت ومطران صور وصيداء  
ران عكا ومطران قبرص ومطران الشام والخبزي نعمة الله الدحداح كاتب السر  
وري يوحنا الحاج قاضي النصارى . ومن الوجوه الامير امين منصور ابو الملع ويوسف بك  
م والشيخ كنعان الخازن والشيخ صالح الخازن وترجان قنصلات فرنسا في بيروت  
الجلس رقيب البطريرك في صدره والمطارنة على جانبيه واكثرهم شيوخ عركوا الدهر  
ضهم درس في رومية واطلم على اخبار الامم الغابرة والحاضرة وعرف تاريخ لبنان وما  
نب عليه من ايام النعم والبؤس . فدارت المذاكرة على احوال الجبل من حين تولاه عمر باشا  
سوي فانه تولى امارته واتخذ بتدين داراً للولاية واتخذ له مديريين الشيخ خطار العاد  
شيخ منصور الدحداح الاول درزي والثاني ماروني وولى الشيخ فرنسيس ابا نادر الخازن على  
سروان والشيخ ظاهر منصور الدحداح على التتوح . وولى على بلاد جبيل والبترون والكورة  
ثة من المشايخ الحمادية فنشرت الخوازة من النمام ولا ياتهم الثالث الى واحد منهم وتقرت  
ارى جبيل والبترون والكورة لان الحمادية مرفوعة ولا يتهم عنهم منذ نحو ستين سنة .  
ان عمر باشا اتخذ النصارى احلافه ليرضوا بولاية الدولة وجند منهم الجنود وجعل  
لنتيري وابا سمرا قائدين عليهم وكتب مصطفى باشا والي بيروت الى البطريرك يثني على  
برته في خدمة الدولة وارسل اليه هدية نفيسة ظرف فنجان مجوهرات ولكن الافعال التي فعلها  
يب باشا بالدحادحة والديسائس التي دست للدرروز لينتقضوا على عمر باشا ويحاربوه ثم  
سمة البلاد الى قائمقاميتين متناظرتين ثم الى ولايتين وتجدد الفتن واستمرارها - كل ذلك  
كن الضغائن والاحقاد في قلوب النصارى والدرروز

هذا من حيث اهالي لبنان ونسبتهم بعضهم الى بعض وكأنت الحروب الاهلية التي  
ستمرت مئات من السنين لم تكف لزعزعة اركان الجبل والتنكيل باهله فتسلط عليه عاملان  
آخران يرميان بسهم واحد الى غرضين مختلفين الواحد يريد التنكيل بالنصارى لكي يتحزب  
م اهل ملتهم من الدول الاوربية ويسعوا في تغيير الحالة الحاضرة والثاني يريد التنكيل بهم  
كي يجد سبيلاً لحمايتهم واحتلال البلاد

وكان مدار الكلام في الجمع البطريركي على شؤون الجبل وما يجب عمله في تلك  
الاحوال وكان كثير من الحضور غير عارفين الغاية المقصودة فلما شرحت لهم بهتوا

وخاف بعضهم عواقبها وكثر الجدل بينهم ولا سيما بين مطران بيروت ومطران عكا، واخيراً تكلم مطران دمشق وكان مسموع الكلمة لتقواه، وقال ان نحن جرينا على الخطة التي فصلها لنا حضرة الترجمان فقد لا يكون الضرر جسيماً في نواحي لبنان ولكن المدف البعيدة كدمشق لا تسلم من الافراط ونحن هناك شرذمة صغيرة فلا تبقى منابقية وما فائدتنا من اصطلاح الاحوال بعد ان نمسي من الفارين، فقال له الترجمان لقد اوحينا بكم اميراً مقداماً عندكم وهو تكفل بمنع كل افراط ولا نظن انه يصاب اكثر من اثنين او ثلاثة وقد لا يصاب احد بل يكتفي بنهب بعض البيوت وان كانت حادثة البادري توما اقامت اوربا واقعدتها والقاتل مجهول فكيف اذا حدثت ثورة عامة وبدا اعتداء مقصود

وبعد جدال طويل واخذ وعطاء اجمعوا على ارسال جانب من الرجال المسلحين الى ساحل بيروت وجانب آخر الى جهات زحلة ثم يعود الفريقان من حيث اتيا

### الفصل الحادي عشر

#### المشكل الجديد

ركب الامير احمد وركب معه ثلاثة من رجاله وهم بالسلاح الكامل لان النزول الى بيروت لم يعد مأمون العاقبة تماماً . ولما وصلوا الى الغدير اضطروا ان يصعدوا الى مخاضته لان الماء كان غزيراً فيه على اثر الامطار الكثيرة التي وقعت في الشهر الماضي . ووصلوا الى بيت الكولونل روز نحو الساعة العاشرة صباحاً . ودخل الامير احمد الى مكتب الكولونل واما رجاله فدخلوا غرفة في الدار الخارجية وكان الكولونل في انتظاره وسهه السر هنري بدمونت فرحاً به وكان البرد شديداً مع ان الجو كان صافياً والشمس مشرقة وقد اوقد الكولونل ناراً كبيرة في موقد حديدي دفئت بها الغرفة . ولما استقر المقام بالامير قال له الكولونل ياغني ان ابناء عمك وجهور المشايخ عازمون على مقاومة القوة بالقوة وهم على تمام الاستعداد وان دروز وادي التيم متحفزون مثلكم وقد كاتبتم دروز حوران وعربها وكلهم قلب واحد معكم فقال الامير لا يمكننا ان نخفي استعدادنا ولكن غرضنا محصور في الدفاع فاذا اعتدوا علينا اضطرونا ان ندافع عن انفسنا

الكولونل — ان كلمة الاعتداء كلمة مبهمه غير معدودة فغداً يتهارش كتابان او يتخاصم رجلان او يقتل زيات في احد الخانات فتقوم القيامة ويدعي كل فريق انه اعندي عليه . وما دامت القلوب ملائمة فلا بد من افراغها وقد كنت اظن ان كلامي لك في السنة

الماضية اقتنعك بأعدول عن هذه السطة وحدث تقمع - وعمت بالعدول عنها فلا ارى حتى الآن الأتدغم التروا وتغير لقتال متوي لاحتمات في كل حوة و لا يصيح لمشورة الوالي فقل لاسباء عمك ان مساعدتنا لم تنس ان حد محدود ودودا عنهم لا يجدي نفعاً الا اذا كان الحق في حاسهم ون الحق هو الذي بقوينا على الدفاع

الامير - كن على ثقة يا سعادة القنصل ان لا تكون الددوين . وانا معكم في ان كلمة الاهداء غير محدودة المعنى وبكفي اوكد لسعادتك اننا غير عارمين ان نلجأ الى القوة الا اذا طمع الكيل فاذا قبلوا منا واحداً منا وواحداً هناك واعندوا علينا في جهات مختلفة فهما توفي حاصتنا وبدلوا من الجهد في تسكين العامة واعمة لا تستكرو ولا تسكت ومحال على احد الفريقين ان يمنع التروا اذا اراده الفريق الآخر ان المريق الذي يريد تذرع اليه بكل وسيلة فلماذا لا يجتمع القناصل كلهم ويوجبون على الصاري ان يكفوا عن الانتداء بالشر فتنهد الكولونل ونظر الى صورة معلقة امامه على الخائط تمثل ملكة الانكايرو والامبراطور نيوليون الثالث واقب امامها يقبل يدها فقل في نفسه ما ابعد الضواهر عن البواطن وكيف يركب اهل السياسة كل مركب خشن في سبيل الوصول الى مقاصدهم وكان قد بلغه اجتماع المطارنة والمشايخ في دار البطريرك فان قواس القنصلاتو سمع الترجمان يتكلم مع المطران وما راجعان على الخطة التي قرر القرار عليها وكان قواس قنصلاتو اكثر سبباً له فاحدته بما سمع وهذا اخبر الترجمان واتصل الخبر بالقنصل فراه معقولاً ومنطقاً على ما اتاه الخبر من وراة الخارجية بناء على ما وصلها من السفارة في باريس فاستدعى الامير احمد لكي يحذره وكان يعلم ان الوالي يخرض الدروز . واذا سمعت كلام الفريقين لا تجد عليهما ممكاً ولا تقطع بان الشر ينتج عنه . واي لوم على من يقول لك كن على حذر واعم اني لا اترك اذا رأيت عدوك اعندى عليك او يقول لك استعد لحصمك ولكنك اذا رأيت اعندى عليك ولا تقبل القوة بالقوة فتضعف حجتك وتمنع صديقتك من مساعدتك بل استمت لحصمك قليلاً فيأتي الصديق لموتتك وتكون الغلبة اتم . القولان سياسيان محكمان واغراض اهل السياسة لا تنال باقل منها هذه الخواطر خطرت كلها على بال انكولونل في تلك اللحظة التي كانت ينظر فيها الى الصورة فان الافكار اسرع من الكهربائية في حركتها وهي مثل صورة كبيرة تمثل معركة من معارك القتال او حادثة من حوادث التاريخ تلحها لحظة واحدة فتتحلى لك تلك الواقعة او الحادثة بملاساتها الكثيرة في لحظة من الزمان

ثم التفت الى الامير وقال له ان الذي اراه وتدل الدلائل كلها عليه هو انكم اذا

تمهياتم للحرب فالحرب حادثة لا محالة واذا لم نتهيأوا لها لم تحدث واذا حدث فلا بد ما تدور  
الدائرة على النصارى وحيثنر تبادر دولة من الدول الاوربية الى احتلال بلادكم وربما  
لا تمضي بضعة اشهر حتى تروا بوارجها في مرفأ بيروت وجنودها على رنى لبنان وانتم ادرى بما  
تصير حالكم اليه حينئذ . وقد نقول لي كيف يمكن ان يصل الى هذه النتيجة والوالي بحر ضنا على  
القتال فاقول لك ان الوالي قصير النظر في العواقب وهو واضراره في القسطنطينية يرمون الى  
غرض آخر وربما تحقق امنيتهم ولكنهم لا يعباون بكم لان السلطنة واسعة فلا يحسبون  
حساب بقعة صغيرة مثل لبنان ولكن لو علموا ان العاقبة تكون كما تقدر الدول الاوربية  
اعدلوا عن هذا التحريض

فادرك الامير غرض الكولونل تماما ولكنه كان يرى يده معبولة عن العمل لا سيما وان  
امرا آخر تغفل بالله منذ تمهين من الرمان فان امه كانت تحب اليه الاقتران بالاميرة  
سلى ابنة خالته وهذا كان غرض خالته ايضا وكانت الاميرة سلى تنظر اليه كما تنظر الى  
اخويها واذا كلمتها خالته في ذلك تليحاً غيرت الموضوع ولم تبدِ الرضى التام فلما دنا زفاف  
الاميرة صفا طلبت منها خالته جواباً صريحاً فاجابتها ان ترين اضطراب الاحوال ياخالتي  
والشهابيون عن بكره ابيهم لا يحتملون ذكر الارسلانيين فما هذا وقت النظر في هذه الامور  
فمادت خالته واخبرت ابنها بذلك فزاد انشغال باله وكان قد رأى اضطراب الاميرة  
سلى واحمرار وجهها لما شاهدت السر هنري بدموت فاجس سراً حتى لم يعد يدعوهُ الى  
الشويفات وكان وهو يكلم الكولونل روز في هذه التوبة ينظر الى السر هنري من وقت الى  
آخر وهو يحسب انه يرى امامه خصماً عنيداً حتى اذا فرغ من الحديث السياسي التفت اليه  
السر هنري باسماً وقال له عسى ان تطمئن القلوب فعود الى الفتيتس عن المعارة

فلم يسهء الا العود الى المجاملة فقال له لا ارى الآن ما يمنعنا من التفتيتس متعال سرفما وقتنا  
تريد . فشكره السر هنري ووعدهُ بان يزوره بعد ايام قليلة ثم قال له ولكن ما هذا الخبر  
الذي سمعناه وهو ان العروس التي حضرنا عرسها خطفت من بيت عريسها

فقال الامير احمد نعم وقد اتساعوا ان الجن خطفتها خرافات العجائز والحقيقة مجهولة حتى  
الآن فمن قائل ان واحداً من الفلاحين اي من غير الامراء كانت تحبه وقد اتفقت معه على  
الهرب ومن قائل انها كانت تريد ان تهرب فنعمها ابوها من ذلك لكنها اتفقت مع بعض  
الراهبات فخرجت الى بيت في جوار بيت عريسها ولبست هناك لبس الراهبات وهرت  
معهن ومن قائل غير ذلك وابوها غير مهتم بها والفتاة التي لا ام لها ليس لها من يهتم بامرها

فقال السر هنري لعنه الله لا بد رتبه بعد تنوع عنها تبيها قصدا انك تدبتم اليها  
فقال لامير كالا وا قد اسمه تبيش من جبر من بين كلاب غير ما يتعلق بالقلافل  
التي في اديب وهه تكن ساي مرآة من كست سمع اسم .  
تم قام وودع القسيس والسر هنري وسب القسيس من بسن في حده اهداء فاعلندر  
بانه مدعو للعداء عند احد فارم ومرة في طريقه عن بيت في حر وهو لا يلتفت بمة ولا  
بسرة مخوفة ان يرى ذلك الرحن فيصصر بكلمة كرا، ثم كرا حسا من الالب فلم رآه  
قادما قام لاستقباله ودعاه لينزل ويسرب فحين فبهة وعندر قرب ادا الطار وان عمه  
في انتظاره بجذله ابو نجر وكنت السمة قد نامت واندا وقوع امصر فلم ير له لدا من  
التخلص منه باية واسطة كانت فودعه واعمل معمر في تكة حوادو وكان معمر دار في  
بيروت يشقي فيها مسار اليه مع رجله الثلاثة وهم يعدون عدوا وكان في الطريق صبية  
يلعبون تحت المطر فلما رأوا احيل عادية قاموا لهربوا من وجهها فهرب واحد منهم اليها  
فداسه فرس احد اتباع الامير وخرحت امة في تلك اللحظة تبرى سب عدو الحيل فرأت  
انها يختبئ بين قوائم الفرس فخلعت ترعق وتصبخ واجتمع النساء على صياحها وعلت الصوضاه  
وترجل الامير ليرى ما حل بالولد فترجل رحاله معه وكان في فبهة محاورة كثيره من  
اهل العطة فالتفوا عليهم وكان الولد حيا ولكن كسرت ذراعه وتدمح رأسه ورف الدم  
الكثير منه واتفق مرور ضابط في ذلك الطريق ومعه بعض الخد فواد صاح النساء وعرف  
الضابط الامير فطلب منه ان يذهب معه الى الوالي وحمل الخد الولد لكي يصوبه الى حيث  
يقم طبيب العسكر واعطى الامير احمد ام الولد كل ما معه من المقود فرمته بها وهي تقول  
قتلت ابني وانت تبرطاني بفرشين وحاولت ان تلحق بي برده العسكر عد خلعت تناول  
الحجارة وترشقه بها ووقع حجر منها على فرسه فرس وحمج وكاد يتعاقم الخطب وبيها عم علي  
هذه الحال مر بهم الوالي ذاهبا الى الجامع لاجل صلاة الجمعة فترجل الامير ورحاله حالا  
ودعا الوالي للذهاب معه فوقع في حيرة لا هو يريد ان يحالف امر الوالي ولا هو يستطيع ان  
يجيبه اليه وان اجابه فقد لا يسمح له بدخول الجامع . واذا جاءت المشاكل ضاقت حلقاتها حتى  
يضيق المرء بها ذرعا مهما كان رحب الصدر واسع الحيلة . هنا ولد مضرج بالدماء وامة نصيح  
وتستغيث واهالي بيروت يستغيثون باهالي الجبل كلهم ويعدونهم فلاحين ولو كانوا امراء ومن سل  
المملك . والوالي الذي يفضل الامير احمد ان يخسراية خسارة كانت ولا يراه في ذلك الوقت  
امر بالذهاب معه والدخول الى الجامع والصلاة فيه وهذه مشكلة اخرى لم يكن ينتظرها نعم

ان بعض اعمامه تطاهر بالاسلام ولكن ذلك لم يكن من مذهبه فوقع في حيرة ولا حيرة الصب

### الفصل الثاني عشر

#### بوادر الحب

بذلت الوسائل كلها في التفتيش عن الاميرة صفا لا من قبل ايها لانه كان قليل الاهتمام بها بل من قبل عريسها ودويده فانهم حسبوا اخفاءها عاراً لا يمحى وزادهم قلقاً تلبس الامر عليهم فبعثوا بالرسل الى كل ناحية وصوب بعد ان فتشوا بيوت القرية كلها فلم يقفوا لها على اثر وكان يأتيهم كل يوم رجل يحمر جديد فيحشون ويفتشون ولا يجدون لخره صحة وجاءهم رجل ذات يوم وقال انه كان داشياً الى جهة سكتنا فامسى عليه المساء وعامت السماء فغاف من المطر والليل حالك الظلام والطريق وعمر لا يسلك ولا سيما بعد ان مر في السيل وحرية فقصده ديراً من اديرة الراهبات قريباً من الطريق وطلب من البواب ان يسمح له باليوم عنده فامتنع البواب اولاً عن احابة طلبه ثم رأى اشتداد الريح فحاف ان يموت برداً اذا لم يسمح له بالمبيت عنده وهو نصف الليل قرع الباب فقام البواب وفتح واذا امام الباب رجلان معهما امرأة في ري راهبة وهم راكبون حيولاً فدحلا بها ووقف الثلاثة في الصحن الخارجي ودخل البواب وقرع الباب الداخلي فجاءت راهبة فتحدت وادخلت المرأة واقفلت الباب وعاد الرجلان من حيث اتيا

فلما سمع الامير ذلك قام في نفسه ان هذه المرأة هي عروسه نفسها لانه شاع وداع انها كانت عازمة على التهرب فقام من ساعته وورل الى بيروت واحار المطران بما سمعه من هذا الرجل فاكد له المطران ان الحذر كادب لان الراهبات لا يقبلن فتاة عندهن ما لم يات بها اهلها ولا سيما بعد ما حدثت من القيل والقال في مسألة الراهبة هندية اما الامير فلم يكن يجهل المني من طلب من المطران ان يريه اتمنى له الامر فقال ان هذا خفاص سيدنا الحارك وسارسل الان احبره بما وقع وبتطر اوامرته وكان مع الامير كيمس سيد عديرون ذهباً فقدت الى المطران اجرة قداديس فامتنع المطران عن احدها اولاً ثم احدها وقال للامير كنت اصن انك تسمح لما نصف المطح كما سمحت امك بالصف الآخر حتى تصير كلها للكرسي فعبس الامير لان ايجار المطحنة السنوي ثلاثة آلاف غرش ولو اراد ان يبيعها لبيعت ثلاثين الفاً او اكثر ولكنه عاد فرأى حرج موفقيه فقال للمطران الذي نقوله سيادتك يصير . وانفقنا على ان يكتب له حجة بالنصف الثاني من المطحنة فتصير كلها للكرسي

وكانت أميرة سلى أكثر الشهائيات اهتماماً بقدرتها، لأنها عشيرة صباها وقد ربيتها  
معاً وحالما بلغها الخبر عرفت حقيقتها ولكنها كانت تحسب أن بنت عمها عدت عن عزمها  
ورضيت بما قسم لها من صفا كانت قد احببت، بما عازمت عليه منذ أكثر من نصف سنة ثم لما  
لج الأمير قاسم في طلبها ولم تر لها مناصاً من قبوله، لاسي بعد ما رأت من اضطهاد زوجة أبيها  
لها ورأت أن سلى لا تتجمعها على عزمها ونية ما في الأمر أنها طلبت منها أن تترك بيت أبيها  
وتأتي وتسكن معها - لما رأت منها ذلك تدهرت وقبول ولم تعد تبوح لها بشيء وكانت  
كبيرة النفس قليلة الكلام فدبرت أمرها على هبل وكانت تعد خطر السبيل الذي سارت فيه  
ولكن لسان حالها كان يقول

إذا لم يكن إلا الأسنه مركب ولا يسع اضطر الآركوبها

وكانت الأميرة هند كثيرة الأوهام تصدق ما يقال عن الجن والعفاريت فقام في نفسها  
أن الجن خفت ابنة سلفها لكنها رأت الأمر فادحاً رهيباً حتى لم تجسر على التفكير فيه بل  
خافت أن تذكر ابتها به وسرت الأميرة سلى باعتقاد أنها ذلك لكي لا تضطر أن تكذب عليها  
إذا سألتها عما تعلمه من أمر ابنة عمها لكنها بقيت مضطربة البال عيها ولم يعد ينأ لها عيش  
ومرت الأيام وهي لا تزيد إلا قلقاً وكثيراً ما كان يحطر بها السر هيري بدمونت فتسر  
بالخاطر وتجاريه أو تنفيه من ذهنها وتسلى عنه بعمل عملي أو كتاب تقرأه، ثم كثر تردده  
في بالها ولم يعد يفارقها بسهولة فقلقت أولاً من جراء ذلك ثم رأت أنها مدفوعة إلى محبته  
رضيت أو كرهت فلم تعد تحاول المحال بمحو صورته من ذهنها وصارت تود أن تراه أو  
تري منه أقل علامة تدلها على أن في قلبه مثل ما في قلبها. ولما مضت أيام كثيرة ولم تره ولا  
سمعت عنه شيئاً صارت تقيم في رواق يشرف على طريق الشويقات وكما رأت دارساً احدثت  
بنظرها إليه. ولم تنقطع عن لوم نفسها وكثيراً ما قامت الحرب بين عقمها وقلبها - يقول عقلمها  
هذا شاب اجنبي رأيت مرتين لا غير والمرجح بل المؤكد أنه نسيتك الآن ولم تعودى تحطرين  
بباله فما هذا الغرور بل هذا الجنون. فيحييه قلبها لو لم يكن في قلبه عاطفة إلى ما كان في هذه  
العاطفة إليه والأما معنى قولم أن القلوب شواهد والحب متبادل ناهيك عن أنه في المرتين  
اللتين رأيت فيهما نظر إلى نظراً غير عادي وفي المرتين كان الحياة يصبع جبينه وكان يسرق  
اللحظ وإذا نظرت إليه غض طرفه ولم أر شيئاً مثل ذلك في كل الشبان الذين عرفتهم ولا  
في احمد. ثم يخفق فوادها وتشعر كأن حجراً ثقيلاً وضع على صدرها وهي تحاول كتمان ما بها  
عن كل احد



## الجزء الثالث عشر

## حل مشكلة

وقف الامير احمد امام باب الجامع وهو يضرب اخماساً لاسداس فضاقت في وجهه المذاهب وتصبب جبينه عرقاً بارداً ورأى الوالي حيرته فظاهر بانه لم ير شيئاً ووقف معه بكلمة في الصحن والجماعة تصلي وراء الامام ثم دار معه ومسيا الى جبهة الميضة وكان يحسن التركية والوالي يسر بمحدثه وقد علم انه آت من دار فنصل الانكليز لكنه لم يشر الى ذلك بل حصر الكلام في تغلب النصارى على الدروز في حادثة بيت مري التي حدثت في الصيف الماضي وكيف انهم اتخنوا فيهم وحرقوا قراهم . قال وانت تعلم غيرتي عليكم وحسابي اياكم سيف الدولة ولكن الصدر الاعظم لم يكن يهتم بشكاوي حينئذ الاعتمام الواجب لانتغال الدولة بامور اخرى اهم من مسائل لبنان فلما تمهدت تلك الامور اتجه الالتفات العالي الى الجبل وفي النية قصاص الذين سبوا هذه الفتنة . وها عمك وجميع المناصب والمشايخ موافقون على ذلك وبقيني انك انت معهم ايضاً

فقال الامير انا ابن الدولة وعبيدها المطيع . وكان كلام الكولونل روز لا يزال يتردد في ذهنه وهو انه اذا دارت الدائرة على النصارى تبادل دولة من الدول الاوربية الى احتلال بلادكم . وصمت قليلاً ثم قال ولكن هل تأذون دولتكم لي في الكلام بجرية وصراحة . فقال الوالي قل ما تشاء فقال هب ان الحرب الاهلية نشتت واننا انتصرنا على خصومنا بمعونة الله وبنأيد دولتكم لنا افلا تكون النتيجة ان دول اوربا ترسل مواهبها الحربية وتحمل البلاد حالاً نبيس الوالي وقلب سفتيه وقال كن مطمئن الببال من هذا الهيبيل نار درل اوربا متخاصمة متناخرة ولا يمكن لدولة منها ان تسمح لآخرى باحتلال هذه البلاد . واحب ما علينا ان نقم المناورة بينهم حتى نخلص من تده

الامير احمد . حملك يا افندينا فاما قرأت في التاريخ ان دولة واحدة منهم تحسب حامية المسيحيين في الشرق والدول الباقيات يسلمن لما بهذا الحق

فقطب الوالي وجهه لكنه قال ان هذا الكلام حبر على ورق فدوة فرسا تدعيه ودولة المسكوب تنازعها فيك والحق للقوة ألا ترى ان الفرنسيين ساعدوا محمد علي والانكليز قاوموهم وغلبوهم وانا واثق ان الانكليز معنا في هذه الثورة ايضاً ولذلك لا الوملك لاجل تردك على قنصلهم ألا ترى انه معنا

وانتفت الامير احمد حينئذ الى ابيته فرأى الناس قد اخذوا في الخروج فقال في نفسه اني الخائن من مشكل واقع في آخر نكته كان قوي البداية فاجاب الوالي قائلاً نعم اني ارى منه كل تشجيع لنا وغيره على دولتنا و يظهر لي من كلامه ان الانكليز لا يزالون مغاصين للفرنسيين ولا يهون عليهم ان تحتل فرنسا هذه البلاد

وكانت الجماعة قد خرجت من الجامع كما تقدم فصار الوالي والامير احمد معه وخرجا من الباب الخارجي كأنهما صليبا مع الجماعة وخرجا معها وهو امر عادي للولاية والحكام بدخول المعابد ويقفون في صحنها يتحدثون مع خواصهم في شؤون مختلفة وهم يحسبون انهم اتوا وعبدوا مثل غيرهم كأن الكبراء معنون من القيام بشعائر الدين . وسيرني عن الامير احمد لانه كان يكره الرياء ونكته لم يكده يسير في الشارع مع الوالي حتى رأى المرأة التي ديس ولدها واقفة له في المرصاد وهي تصيح وتصخب فسأل الوالي عن قصتها فقيل له ان جواد ابن خيل الامير داس ابنها . فوقف وادار رأسه الى الامير وشمخ بانته كان لسان حاله يقول له مسكتك وكيف تنجو من يدي . فقال الامير نعم ان ابنها وقع في الطريق فرفسه فرس رجل من اتباعي ولكن المسألة عرضية

فقال الوالي ألم يدسه فرسك . فقال الامير كلاً بل فرس رجل من اتباعي وهو له ليس لي ومع ذلك فالمسألة عرضية وقد نقل الى المستشفى

فاسف الوالي على ما بدر منه واراد ان يحو تأثير كلامه من ذهن الامير احمد فدعا له لزيارته حينما ينزل ثانية الى بيروت وقال لرئيس الضابطة وكان سائراً وراءه خذ هذه المرأة من هنا ولا تدعني ارى وجهها . ثم ودع الامير احمد وسار في طريقه فوقف الامير الى ان ابعده عنده ثم ركب جواده واسرع الى بيت عمه وهو لا يصدق بالنجاة من هذه المشاكل المتوالية

فلما وصل الى بيت عمه وجد عمه والبعض من مشايخ البلاد في انتظاره فهناؤه بالسلامة لان احد اتباعه كان قد سبقه الى هناك واخبرهم عن التقاء الوالي به واخذهم معه الى الجامع بعد ما جرى للولد ما جرى وكانوا يخافون ان يمنع من دخول الجامع مع الوالي او يأخذه الوالي بجزيرة الرجل الذي داس فرسه الولد فتفضي الحال الى ما لا تحمد عقباه فلما وصل قصر عليهم ما جرى له مع الوالي في صحن الجامع وكلام الوالي له وكانوا كلهم من رأي الوالي ويظنون ان انكلترا تساعدهم نكابة في فرنسا أما هو فاكد لهم ان انكلترا لا تساعدهم بل تطلب منهم ان يلزموا السكينة ولو اعندي عليهم . فقالوا له اذن تكون العاقبة

وخيمة علينا ولا نعود نستطيع السكن في البلاد بل نضطر ان نرحل منها واروه مكاتب واردة اليهم من دروز حوران ووادي التيم فقراءنا وتمعن فيها ملياً وباراهم في الحديث . ثم جلسوا للطعام وغيروا موضوع الكلام امام ائندم وجلسوا بعد ذلك ينظرون في تدبير المال اللازم لما يقصد من الاعمال لان الوالي وعد بكل مساعدة حتى بالرجال والسلاح ولكن خزينة افرغ من جراب ام موسى . وكان الخواجه بنحور قد انتقل الى بيروت بعد ما وقف علي رأي الامير المغربي فزاره عم الامير احمد وطلب منه ان يقرضه الف كيس اي خمس مئة الف غرش وهو يرهن له ما يملكه من الزيتون في صحراء الشويفات واخلفنا على المدة ومعدل الربا فالامير طلب ان تكون المدة اربع سنوات ويكون الربا اثني عشر في المئة والخواجه بنحور طلب ان تكون المدة سنتين فقط ويكون الربا عشرين في المئة وان الامير احمد يفهم الدين مع عمه ولذلك لم يتفقا

وجاء الخواجه بنحور حينئذ لرد الزيارة ومشاهدة الامير احمد لانه كان يعرف اباه وكان بينهما صداقة قديمة . ولم تطل اقامته حتى اتصل الكلام الى مسألة الدين . فقال الخواجه بنحور لقد بلغت الديون التي استدانها منا جمهور المشايخ والبكوات حتى الآن اكثر من ثلاثين الف كيس وكلها بفائدة عشرين في المئة فلا يطاق لنا ان نطيقكم باقل من هذه الفائدة لان النقود صارت عزيزة في هذه الايام ولا سيما بعد ما عقدت فرنسا قرضاً وعقدت سردينيا قرضاً آخر استغرقا كل الاموال التي في ايدينا وانتم تعلمون مقدار القلاقل المنتشرة في البلاد كلها ولولا علي ان الفوز يكون لكم اخيراً لان الدولة معكم ما كنت انماطر بفرش واحد ولكن مع ذلك من يدري ماذا تكون العاقبة

فجعل الامير احمد يتوسل اليه ليتساهل مع عمه ويجعل الربا خمسة عشر في المئة وينفيه من الضمان لان عمه يستعيب ذلك . وما قاله له ان الاملاك التي سيرهتها عمي لك تساوي خمسة آلاف كيس على الاقل افلا ترهبها على الف كيس لقد زدمتها يا خواجه بنحور وهذا ليس من العدل ولا من الانصاف ونحن اصدقاء من زمان طويل فقال الخواجه بنحور ليس في اليد حيلة يا امير احمد وانت تعلم اني لست وحدي وان اولاد عمي لا يتنازلون عن غرش واحد

فاخبره الامير احمد انه استدان من بيت طراد ولم يدفع سوى ١٢ في المئة نعم ان المبلغ الذي استدانته زهيد ولكنه لو طلب منهم الف كيس بهذه الفائدة لا عطوه فاجابه الخواجه بنحور ان هذا يكاد يكون ضرباً من الخيال في هذه الايام وانه لو طلب

منهم اليوم ودفع لهم عشرين في المئة لرأى انهم يعتذرون عن اعضاءه مئة كيس بهذه الفائدة ولكن كلام الامير احمد عن بيت ضراد حل عزائم اسواجه بنور مقال بي نفسه يجب ان يجمع كل اصحاب البسوك الذين يدينون وتتفق على معدل واحد - حتى لا يضر بعضا بعضاً . وبعد جدال طويل اتفقوا على ان يكون معدل الربا ثمانية عشر في المئة وان تكون المدة ثلاث سنوات ويكتفي الخواجه بنحور بالرهن ولا يطلب ضمان الامير احمد ثم التفت الخواجه بنحور الى الامير احمد وسأله عما اذا كانت الاملاك تساوي خمسة آلاف كيس حقيقة فقال نعم وهذا لا يقبل الفاظ فانها خمس مئة فنظار من اغراس الزينون والقنطار يساوي خمسة آلاف غرش على الاقل فقال الخواجه بنحور اذاً يمكنه ان يستدين عليها الف كيس أخرى فنحور تهمت امره وامر عمك

وعاد الخواجه بنحور الى مكتبه فوجد انه اتاه تحويل على خزينة بيروت بتلاثة آلاف كيس لان شركاهه في لندن وثينا كانوا يدفعون الاموال في الاستانة وياخذون بها تحويل على خزائن الولايات فأسقط في بده لان اليوم كان الجمعة والخزينة مقفلة واليوم التالي السبت لا يستطيع ان يعمل فيه عملاً فيضيع عليه ربا يومين فجعل يتم ربا السفينة التي لم توصل التحويل يوم الخميس وعد ذلك من جملة الخسوس التي توالى عليه تلك السنة وعاد الى بيت منغص العيش كأنه خسر خسارة كبيرة لا تعويض

### الفصل الرابع عشر

#### الاميرة صفا

مضى شهران على اخفاء الاميرة صفا ولم يعلم احد مقرها لكن زادت الاشاعات بانها ترهبت في احد الاديرة وكتب المطران الى البطريرك وبجت البطريرك في الدير الذي اشار اليه الامير قاسم فلم يجدها فيه ولا وجد ان راهبات الدير يعمن شيئاً من امرها . وكان ابوها يظن انها هربت مع شاب من الفلاحين فخرمت ميراثها من امها لان الشاب غني جداً وكان يحبها ويود الاقتران بها ولكن الشهابيين لا يزوجون الفلاحين ولو صاروا من افقر الناس وصار الفلاحون من اغنامهم . وقد قال هذا الشاب لابيها انه يتنازل له عن ميراثها من امها وكان وافراً جداً فان امها من نسل الامير بشير الكبير وقد ورثت منها جنائن وبساتين في الحدت والشياح ووطا نهر الكلب وضياعاً ومزارع في بلاد جبيل وسهل البقاع فقال ابرها الى

تزويجها بها ولكن اخوته وابناء عمه منعه من ذلك وهي لم تكن تميل الى ذلك الشاب . واتفق انه كان غائباً وقت زواجها فاتهمره باحضاؤها ولكنها عاد من غيبته وانضح انه لم يكن طارفاً بما جرى لها لانه لما رأى اصرار اهلها على تزويجها بالامير قاسم . افر الى مصر لكي يسارها . فلما رأى ابوها ذلك استغل بالله وحاف ان يتحقق امر ترهبها فيصحب معه ان يسلمها كل ميراتها من امها وكان كذلك فانه بينما كان ذات يوم يفكر في هذا الامر جاءه رسول من دير العازرية في بيروت ومعه كتاب من انتوه له لما فضه وقراه اظلم الضياء في عينيهِ وقام من ساعته وجاء الى بيت ابيه الامير عباس ابى الاميرة سلى لانه كان اكبر منه سنّاً راوسع خبرة واره الكتاب فارغى هذا وازيد وشتم ولعن وفاز لا غير تلمت لك لا تدح هؤلاء الراهبات يدخلن بيتك وليس طمعن بصفاء بل بالنائن والبساتين والسياع والمزارع ما دمت لا صتين بهذه الطغمة صيروكم على الارض هذا قاسم المطران وهم المعننة كلها المطران لكي ينسئ له عن صفا وانا احلق لحيتي ان كان المطران لا يعلم انها ذهبت مع الراهبات وار ذلك بعلمه وبدسيسته . هذا امر لا نعلمه ولا نطيقه لم يقع مثله لبيت شهاب من اول مجيئهم الى هذه البلاد الى الآن اسمع ماذا تقول لك في مكتوبها نقول انها فرحة جداً لانها تستطيع الآن ان تصلي لاجل خلاص نفسك وامتدء عمها . من كان يمنعها عن الصلاة وهي هنا ألا يسمع الله في لبنان كما يسمع في ايطاليا ولكن ليس العبرة هنا بل العبرة في قولها ان تاذرت الله ان تساعد الفقراء والمساكين بكل ما تملكه اي بكل ما ورتته تكفيراً عن نسي امها لان نفسها لا تزال في المطهر . قم لعبوا عليك واخذوا ابنتك ومرهم ان يأخذوا امرالك . تم اسمع ماذا نقول انها مسبوطة جداً ولكن البرد شديد في تلك البلاد وهي مسابة زكام شديد . عند ايقول معها الى سل في تلك البلاد الباردة ونموت . من يذهب من هنا الى ايطاليا في فصل الشتاء غير المجربين

ولم يقل الامير ارس شيئاً بل جلس يكر في الامر ويمص المصاة بيد المصاة من التسبف الذي في يده رطلين دماها في البرستي عار دولة سخابة من الدخان وهو يقب حاجبيه تارة ويرفعهما اخرى كأنه يفكر في مساله اسنر والامير عباس يعيد تلاوة الكتاب وينظر في معانيه واخيراً قال الامير فارس ليس لنا الا قنصل فرنسا فهو محتاج الينا الآن فاذهب اليه انا وقاسم ونطلب منه ان يرجعها حالاً والا نخرب طرته كلها

فقال الامير عباس وهذا لا يكفي بل يجب ان نددوا المطران بالرجوع الى الاسلام ان هو اصر على عدم اباية طلبكم فاني اخاف ان تنصل فرنسا لا يستطيع ان يفعل شيئاً من

هذا القبيل لان الامبراطورة في بلاد كثير من الاشياء في الامور ولا تجامران تطاب منهما شيئاً والامبراطور في يده . وعي كرسى لانه رومن اسبب في الانبياء الى التفتعل والى المطران

وكتبت الاميرة صفا الى الاميرة سلى وارسلت الكتاب فتمت كتابها الى بيها يسلم اليها وهو باللغة الفرنسية وتقول فيه

اختي وشقيقة روحي

اطلب السراح منك يا حبيبتي ومن والستك خنونا لانني فارقتك في هذه الصورة وقد كنت اريد ان ودعتك يودعتك انني قد لا اعود ان كذا في حيا في يوم موري وقدمت كتابتي حينما خرجت من بيت ابني ووقع نظرتي في صورة على الوجوه التي حياها على المناظر التي قضيت فيها زهرة عمري . على الاماكن التي كنت تلعب فيها مع الاصدقاء التي كنت فبئس تحتها . كل ما كنت اتسلى بتزييت من الضيور والياحين والازهار كل شيء من ذلك لانه كان في قلبي ولكن المكان الاول فيه هو لك ولا مبرر وتعتبر المرحومة والدتي . اه يا سلى كآود ان اراك الان واخذتك الى صدري ونذهب معاً الى قبر والدتي فضع خدي عليك واغسله بدموعي . صدقيني يا سلى اني تركتكم ككلا لاجلها لكي اخلص نفسها لا بد من ان يكون الناس قالوا اقوالاً كثيرة واتهموني بهما لا احد ذاك الله يد تحيم امه ان كنت اتعزاني اخترت النصيب الصالح . ولا يحق لقاسم ان يلومني لانني احببتك عزيزك انما يستحق علي ان اقترن به بعد ان كرس نفسي لخاصي فاريد اني نفسي وكذلك لا يحق لاني ان يرهني ومع ذلك فاني اصلي لاجلها دائماً كما اصلي لاجل ابيك وامك ولا تظني يا حبيبتي اني صرت الان اسعد مما كنت كلاً غير اني ارجو ان يغفر الله لي ويكن الدين احبهم . ارجو عني بتقبيل والدتك وتقديم الاحترام لوالدك

ولما قرأت الاميرة سلى الكتاب وترجمته لامها جلست الاثنتان تبكيان وتسمع الاميرة سلى كأن بلاطة وقعت على صدرها فلم تعد تستطيع التنفس ومضت ساعة من الزمان وهي تعود الى البكاء كلما وقع نظرها على امها . وصفقت امها بيديها فاتوها بانارجيلة والقهوة فجلست لتسلى بالتدخين وقالت لابنتها هل كنت تعلمين يا سلى عزم صفا على الترهيب . فقالت اخبرتني صفا بذلك مراراً ولما رأت اني لم اصوب رأيا لم تعد تكفي به والظاهر انها لم تصم الا قبل العرس بيوم او يومين

فقال امها لا تخافي الا من النهر الهادي من كان يظن ان صفا تقدر على هذه الحيلة

كن ماذا تقول وماذا نتكلم ابوك يشمت بنا وخالتك تشمت بنا وابن خالتك يشمت بنا  
 سمعت اولى . قال عمك ان الله سينصب الى المطران وقتصل فرنسا هو وقاسم ولكن لا فائدة  
 ، ذلك وستكون عاقبة تشديدنا انهم لا يعودون يدعونها تأتي الى هذه البلاد . ما خلصنا  
 ، سيرة القديسة مندية حتى ونعنا في قصة ابنة عمك . غداً ترين تطويين السنة الفلاحين  
 بنا الله يهونها

ومررت ساعتان وهما في حديث مثل هذا ودخل الامير عباس وجلس الى جانب زوجته  
 تاها احد الخدم بنقلة وقال الامير عباس اخذت مني عشرين غرساً امس ولا بد لي من  
 ترجاعها فقالت نه ستخسر عشرين فوقها . ثم اخذا يلعبان لكن الاتنين كانا مشغولي البال  
 بلما اتما الدق الاول قالت الاميرة هند هل تظن اهم ينجحون في ارجاعها . فقال لا اظن  
 نهم ظامعون باملاكها فان املاكها تساوي اكثر من ستائة الف غرس ولا بد ما توقفها  
 ثلها للدير وانا خائف على صحتها لانها تقول في مکتوبها الى ابينا انها مصابة بركام شديد  
 فتنهدت زوجته وقالت يجب ان ندير باننا على سلى فان اخي كئني عنها مرات كثيرة  
 حمد ميت حتى ياخذها ولكن لا تلتفت اليه راسيا بعد ان زارنا هذا الشاب الانكليزي  
 الامير عباس — ماذا تقولين ماذا تقولين الشاب الانكليزي هي زارنا هذا الشاب  
 الاميرة هند — رأيناها مرة ونحن عند النجمة كل ماراً هو واحد ثم دعاه احمد لحضور  
 برس ألم نره حينئذ

الامير عباس — نعم رأيتُه آمداً هو . نعم رأيتُه ولكني لم اسأل عند  
 الاميرة هند . يقول احمد انه وكيل القنصل وان من اراء الانكليز  
 الامير عباس . من اراء الانكليز ويكره دكيلا لانه لم يلقه . مثل كثيرين  
 من التمهانيين

الاميرة عند يقول احمد انه من الامراء الاغنياء ران راء الانكليز مهسا كانوا  
 نياء يخدمون في اصف الحوائف السياسية وقد جاء الى بر الشام لكي يفتش عن غير واحد  
 اجدادهم قال انه قتل قرب بيروت، ودفن في جيات التسويات او كترشيا . سلى تعلم  
 انه اكثر مني فانها سمعت كل كلمة قالها احمد وسمعت اسماء اخرى عند من الخدم فاذا كانت  
 ملق به فهناك المصيبة

الامير عباس اذا تكون مصيبة الم يتزوج عبدالله بابنة تشرشل بك الانكليزي فان  
 ان هذا الامير كريم الاخلاق شهياً فلا مانع عندي ولكن ان كان افاقاً مثل كثيرين





مسروراً بهذا العمل وقد كتبت الى سيدنا البطريرك ليعترض عليه وانا اعترضت عليه نفسي  
 لانا لا نسرمداحجة الرهبان اللائمة في طاعتنا ومع ذلك لا اقدر ان اعدكم بجناحنا  
 فقال انما يرفرس من ذهبنا الى قنصل ورسا فما رأي يادتك في ذلك  
 فقال لا بأس اذهب اليه وهو قادر على مساعدتنا اذا اراد  
 فقال الامير فارس ان لم يساعدنا فانا اعرف كيف اعد لهم الطبخة  
 فاضطرب المطران من هذا الكلام وقال ماذا نقرر يا ابي لا شلط شعبان برفضان  
 هذه مسألة وهذه مسألة مسألة امتك مسألة دبية عائلية ومسألة اجل مسألة سياسية وهذه  
 هي العروة الوحيدة لنا للتخلص من هذه الحالة التي لا تحنسل فارجوان لا تحركوا ساكناً  
 فقال الامير فارس سياسية او غير سياسية فانا لا اسكت ما لم تردوا لي نتي  
 فاطرق المطران وهو ماسك لحينه بيده يفكر في الامر ثم قال للاميرين انتظراني هنا  
 حتى اذهب واقتل القنصل  
 ونادى قواسه وابس حبتة وسار الى قنصلاتو فرسا مقابله القنصل بالترحاب وتداكرا  
 ملياً ثم وعده حيراً

### الفصل الخامس عشر

#### كتف العاص

اشان من العملة دخلا مغارة بين التويمات وكفرشياً ظاهرها قدر سيط ناب في الصخر  
 الكدان الابيض عرضه نحو ثلاث اقدم وعلوه نحو اربع رقد علاه الطلبل وعلت المسات  
 حولته حتى كانت تسده من الاقحوان والتوكوان وبحور مريم وايست الدراس داخل  
 المغارة، كل ما كره الشمس، يح اطل مدر مع الماء من ادرت الركن حزان وعجوان  
 وبما احوان، انما ايسر ما يصدر ادرت حيث كرس من مررعاً لامحاً رأيا الحريز ارجع من  
 التيين وبها نكان الملك الارض تن اتر اساء الامار لاد قنبا يجر احد مهم من ملك  
 يعمل به وكثيراً ما يبت انه رويبتت اصحور ويرج في فتاة تيمة او كومة او توتة اوزيتوبة  
 واسمراً وقوع الميار ساعة من الزمان فاضطراً ن بقيا في المغارة كل تلك المدة وصارت  
 عيونهما ترى ما لم تكن تراه اولاً لانها اعتادت الطلام فانسعت حدقاتها رحمت النور  
 لقليل المعكس عن حدران المغارة فانتها الى حفرة في داخلها كأنها ناب مغارة أخرى فقاما  
 ليها وجملا يحفران فازالا التراب وادا هما بباب آخر كالباب الاول ولكنة مسدود بحجر كبير

فتعاوننا عليه ونزعه من مكانه ودخلا المغارة الثانية وهي اكبر من الاولى وكان الا  
فيها الا حيث يدخلها قليل من النور من الباب الذي نتجاه ففتيا نبيها وعبرا بما  
فاشعرا بدناهما ووقفا حائرين ثم اعتمدا على ان يرجعا الى مكانه ويعود  
ومعهما شمعة . فعادا بعد الظهر ولم يكن احد يشك في انهما عائدان لربيع نص  
انقطاع المطر لان الارض ارضها وكانا يزرعان التوت فيها ودخلا الممار  
الداخلي ثانية وانارا الشمعة فدهشا مما رأيا فيها فانها رأيا عظام عشرين او  
وبعض تلك الجثث لم يكن بالياً بل كان جافاً مسوداً ومع بعضها اسلحة قديمة  
وفؤوس وخوذ كان الذين وضعوا القنلى هناك من اصدقائهم لا من اعدائهم او  
تسمح لهم لسلبهم فالقوم في المغارة باسلحتهم

فاتفق الاخوان على ان يسدا الباب الداخلي كما كان ويعودا في الليل فياً  
شيئاً فثبتاً حتى لا يشعر بهما احد فسداه وخرجا وكانت السماء قد صحت فعا  
نصب التوت ووضعوا الشمعة على حجر الى جانب باب المغارة

ومرّ بهما الامير احمد حينئذ وكان قد خرج للصيد وحده فوقما للسلام  
التفاته الى باب المغارة لانه لم ينس غرض السرهنري بدمونت فرأى الشمعة  
الحجر فسألها عنها فارتبكا في الجواب . فوقف مستبهاً بامرهما وطلب منهما ان  
يفعل كل منهما ينظر الى اخيه وكانا كلاهما من حزبه يركنان اليه فلم ي  
اخبارهما بما رأيا في المغارة الداخلية فدخل معها وازاحا الحجر ووقدا الشمعة  
وقال لا بد وان تكون جثة جد السرهنري بين هذه اجثت لا سيما حية  
قديمة . نعم ان الصدا كان قد اكلها ولكن شكها لا يزال ظاهراً وهي من ا  
التي كانت تستعمل في عهد الصليبيين

فامرهما ان يسدا المغارة ولا يخبرا احداً ابداً ووعدهما بمشترى كل  
وعاد الى داره وهو حائر في امره هل يخبر السرهنري بما رأى فيكثير تردد  
والشويقات ويرى سلى فيزيد ميلها اليه وحبها له او يكتم الامر عن كل ا  
هنري ان التفتيش عن جده في تلك الجهات ضرب من العبث وعليه ان يفتش  
اخرى . فقام في نفسه عاملان متنازعان عامل الشهامة وكرم الاخلاق يقول  
غرب وقد التجأ اليك واستنجد بك وقد صار في طاقتك الى ترشده الى ما ا  
فيجب ان تلو طلبه وترسل تخبره بما اكتشف هذان الرجلان وجزاؤها

• وعامل الحب والاثرة يقول له هذا مناظرک في حب ابنة خالتک ويجب عنها بكل طاقتک ولا تدع له سبياراً للتردد الى هذه البهات فتتساه وتعود الشهامة ان كانت ابنة خالتک قد فضلت هذا الاجنبي عليك فلا خير فيها ، ان تساوها وتساها . فيقول الحب هذا اغترار بالطواصر فقد اغترت به ، بالله ابداً فاذا لم تعد تراه نسيته ونجت من ورطة كان يمكن ان تقع فيها بنذل كل واسطة لنجاتها منها

• طوبل على هذا النمط تغلب عامل الحب على عامل الشهامة فصمم على ان لي داره ويخفيها فيها ويسد المغارة ويضمس مطالبا . فاستدعى الرجلين بكل ما يمكنهما حمله من الاسلحة ثم يسد المغارة ولا يخبر احدًا واعطى رة ريبالات فقبلاً يده وذهبا وجملاً ينقلان الاسلحة في حالک الظلام سيوف والخوذ واما الدروع فتركها في مكانها رسماً باب المغارة جيداً وغرسا نع الدخول اليها

يلة جاء كتاب الى الامير احمد بن الكرولزل روز يدعوه فيه الى بيروت لادعمه عليه ولكنه خاف ، من غيرتهم لانهم كانوا يغارون منه لمكاتبة م وكان يود ان يشركهم في المسؤولية معه فوقع بين نارين ونام تلك الليلة حجر الغضا لا يستطيع ان يخالف الوالي ولا ان يعادي القنصل ولا يريد ان يثلا يسأله عما اذا كان قد عرف شيئاً عن المغارة او بلة شي عنهما لانه -اومة البحث والتنقيب وكانت الشهور قد تفاقمت وعزم الناس عزمًا أكيداً نة وكانوا ينتظرون انقطاع المطر واهالي الساحل يرددون ان يتبرأ من ا يحدث شي

ويقات في ذلك الحين شاب من النصارى اسمه كامل جري الفواد قوي رصاصه من يسده اليه . اجتمع عليه مرة ستة وحصروه في مطحنة م وشبا من يدهم وانتقر الى المتن وجعل دابة ربط الطرق وشن الغارات . بحسبون ان الفوز سيكون لهم حتما لانهم فازوا فوزاً مبيناً في الحركة ري التي حدثت في الصيف الماضي . واتت الرجال من كسروان وهي بالسلاح في بعيدا تشجيعاً لمصارى الساحل فغشي الامير احمد ان يذهب بطريق تأمل هذا او باحد من اتباعه فيحدث ما لا تحمد عقباه فاختر طريق البرج



هما يصعب علينا ان نجيب سعادتك على هذا السؤال ولكن لا بد ما يكون  
انبول قد وقف عليها كلها

لسنير عارفاً بها ولا مهتئاً الوقوف عليها واثنى الكولونيل ان يجبرهم بذلك  
الامير احمد لا يعلم بها ولا يتخين لا يفتيان سرّاً او تمنا عليهم فلم يبلغ عليهما لكنه  
كلامهما ان الاوامر ذات شأن حطير كما قيل له . ورجا ان يأتيه من يخبره  
كان يقول ان السياسة تقضي على المرء ان يعرف مقاصد خصمه بكل واسطة  
رر قبل الوقوع فيه الا انه وده ان يعرفها ذلك اليوم ليكتب مع البريد يخبر  
: ورأى ان الشيخ مصيب في طلب مركبين حريين وعزم ان يكتب بذلك  
. وقف على الاوامر السرية التي بلغه خبرها لعل ذلك حتماً

المذاكرة نهض الامير احمد ونهض الشيخان الى بينهما لانهما كانا قد شتيا في بيروت تلك  
احمد الى بيت عمه والشيخان الى بينهما لانهما كانا قد شتيا في بيروت تلك  
ون من مشايخ الجبل على خلاف العادة . وكان لا بد لهم من المرور تجاه بيت  
ابي نحر وكانه كان جاسوساً عليهم يرقب حركاتهم وسكناتهم فوقف في باب  
وطلب منهم ان ينزلوا ويشربوا فحجان قهوة فاعذروا اليه بضيق الوقت وقرب  
لك بلجام فرس الامير احمد وقال علي الطلاق ان لم تنزلوا وتشربوا  
ضطروا ان ينزلوا فادخلهم بيته واجلسهم حيث اجلس الامير ونادى بالقهوة  
ايهم ما سمع من الوالي من المدح والتناء على الامير احمد وذكائه قال وقت  
ير احمد ابن ابيه وابوه كان صديقي والصداقة قديمة بيننا اتم الآن آتون من  
نكايز لا بأس فال الامكايز صدقاة لدولتنا العلية هم والفرنسوي حالفوها على  
وكر يري لي ان السياسة اقلبت اليوم وان افندينا الرالي ما عاد يركن الى  
. لم يقل لي ذلك . ريجاً وكنني سمعت منذ . انا الفطها طائرة . ونحن ما لنا  
الامرنج ما دام دولتنا في الوجود . ما هو رأي القصل في لي يا امير احمد  
تستحني كما كان يستحني المرحوم راندك

ير احمد ليس الامر كذلك يا ابا نحر ولكنك انت عارف بكل شيء والذي  
تستنتج به ذكاء عقلك

ونحر وقال هكذا كان المرحوم ابوك يقول عني نحن احباب من زمان طويل  
معرفة مبارك ان شاء الله تفضلوا خذوا القهوة . هذا بن حجازي يا تبني

هدية كل سنة لامتين لذي في كل بيروت ولا في اسم وعمري حرية استيرتها من  
 جوارى اسعد انما لكم محوطة عمير لتهمة ولا - - من اوتوا - - تدي من يهاون  
 حسب ولا تدقة في دوا من ثورا اسد عمير - - في - - يث - - هة الدر  
 اطيب من غيرها شربها في اسمة اصية - - اى عرب - - ا - - حمة - - سبت الى  
 هناك من قبل الوالي لعض لاتعل وكنت تدي من هومتها - - ارها طيب من قهوة  
 الجارية التي عدي . ما دا بقول يا حصرة شيخ من تدي تدي هوة صيب من هذه القهوة  
 والفناجين والظروف الامير احمد يعرف قمتها رربي اواي في رمة - - كي يترب من  
 هذه القهوة ولما رأى الفناجين اتبع له وى لآن يقول ما شرب من التوبة التي  
 شربها في بيت الشيخ درويش

فقال احد الشيخين نعم القهوة كما وصفت يا حمة اشيخ ونحن مسرورون هذه المعونة  
 الخديدة والفضل فيها لسعادة الامير . وصديق الشيخ الاحريسي كلامه - - وهمسوا وعد مسيا والتي  
 تمكنوا من وداعه وركبوا وساروا في طريقه ولما امير احمد يقول لا بد ما - - لخذ طريقا  
 آخر غربا بعد الآن حتى نخلص من هذا التقييل  
 وسار الامير احمد الى بيت عمير والشيخ الى بيته . رتوقه على ان يجتمعوا في مساء  
 في خلوة رأس بيروت ويتداولوا في ما يجب عليهم عمله في ال - - ال - -

### الفصل السادس عشر

#### استحجال الخطب

ارى خلل الرماد وميض جمر	ويوتك ان يكون يد صرام
فان النار بالعودين تذكى	وان الحرب اوها الكرم
وما الحرب الا ما علمت وذقت	وما هو عنها بالمديت المرحم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة	وتصر اذا خسرتموها فتصم
فتعركم عرك الرحي بتفاتها	وتلقح كسافا تم تحمل فتتم
فتنتج لكم غلمان اتام كلهم	كحمر عاد تم ترصع فتصم
فتقل لكم ما لا تغل لاهلها	قوى بالعراق من قفيز ودرهم

ليقل محبو السلام ما شاؤا في مذام الحرب وليظن كتبهم في وصف ويا اها دام

في الدنيا اناس يتجرون بالحروب ويكتسبون بها اسماً وجاهاً او مالاً ومقاماً فهم يوقدون نارها  
ويدكون اوارها وهي آلة الملك والوزراء والقيادات والرواد والبرابرة والمرابطين والموردين وصانعي الاسلحة  
والهجمات بكل المزيين من مال غيره . فما دام هؤلاء يجنون فيها معماً لمن سطى نارها  
وشر الحروب الحرب الاهلية وشر الناس موقدو سميرها ولا سيما اذا لم يكن للمتجارين  
مصلحة فيها

مضى الشتاء وحا الربيع فانتعشت الطبيعة ولبس ابهى حللها وحلاها تفجرت الينابيع  
واكتست الرياض والغياض اتواناً سدسية طرزة بالوشي المعلم وانجنت الادواح تحت حملها  
من تفاح قصي ومشمس عمجدي والطيور تنمي في افسانها وعبق اريج الازهار يعطر الآفاق  
ويسلي النفوس عن اتجاهاها . اسبح الله الطيحة من نبات وحيران حذلة طرنة الآ ابن آدم  
انتظر انقطاع الامطار لكي يندلها بران من رصاص سادته يحطف بها النفوس من الابدان  
قصاء للبانات افراد معدودين

وصلت الاحبار الى الكولوبل روز ان الرميثة وقعت والنار اشتعلت وقد طرح الصوت  
وأطلق المدفع وانفص رحال كسروان من الساحل اطاعة لامر الوالي والمطران وعادوا  
ادراجهم واجتمع الدرود حول متساخيمهم وهموا على قرى المتى والقاهم الصاري حائري  
العرائم لان الخنود في الحارمية وراءهم وقد حافوا ان يقموا بين نارين لا سيما وان كان قد  
شاع وداع ان في يد الوالي اوامر سرية باستئصال سأتهم

وصعد السرهري بدموت الى سطح القنصلية والمطارة في يد عري كانت ربي  
لبان استحوالت الى براكين كتيرة نقدف الدخان واليران من افرادها وقام اداؤه ررافات  
زرقات متاة زرسائاً وقد اتروا الاعلام وانتشروا حول القرى، بهامهم مصماً ويتامون  
رحاض السارق من وراء اساريس تم يستلون السيوب ويردود الخوف الى ان يتعلب  
فرق ال ريق ويدية ويصره ، اقميتو تم يصرم النار في مساكهم . والتفت الى كمرشيا  
حت دار الاميرة سلى رأي الدحار مسرداً فوقها فوقعت المطارة من يده وحلس على كرسي  
وسد رأسه وقد مر في دمه صور الحروب القديمة التي كانت تنتسب في تلك البلاد وتمتهي  
بحرق البيوت وسي الاء والدراري فقال في نفسه ترى ما حل تلك الاميرة واي فارس  
اردها وراءه الآن وهي سادي وتستعيت ولا سامع ولا معيت هل جعل ما كان يفعله العرسان  
في القرون الوسطى فيتقلد سلاحه ويرك جواده ويبارر لانقاذها بهجم على الفارس الذي  
حفظها ويطعنه طعمة تكون القاضية . ولكن انى له ذلك الآن وهو عريب في بلاد عربية وقد

في الامر وكادت جميع ...  
فخرتيا الى ن هجم الاعداء و ...  
اعداء فدارت ...

وكان الكولال روز مصابا ...  
رأى فخلص في سيره وتحتزم ...  
تهم اتوا بالرجال من كسروان ...  
كبين الخواضر وقد يعلمون ...

ثم عاودته نوبة السعال ...  
اربن من قرى الساحل قد وصد ...  
ض العجائز ولا طعام لحم ...  
لران الموازنة وفريق الى دار ...

صيطرة وبيع النبع ولا بد ...  
مة كل ما يحدث في المدينة ...  
السرهزري -- القنصل على ...  
نه الحال فاخبرني بما ترثيه ...

الترجمان -- لم ان الا قليلا ...  
بريهم ولا بد ان يبلغ عدد ...  
تمام الحروب

وود السرهزري ان يذهب ...  
كان يجهل كل طرق الاستدلال ...  
نكرا ويرى العيون رقيقة عليه ...  
لا بالامر العام وبالبلية الكبرى ...  
نهم كلهم فجلس مشرد الافكار ...  
وسار الترجمان الى الدار التي ...  
هو عازم ان يذهب بعد ذلك ...  
با وقف عليه



## الفصل السابع عشر

## واقعة الساحل

لما كان السر هنري واقفاً على سطح القصلية يرى الدخان يتصاعد عن سفح لبنان من قراه المتشرة كالجبب على وجه الماء او كالدراري في كبد السماء كان رجال الساحل قد احيوا الليل بالاستعداد لمقابلة الاعداء واقسموا فريقين فريقاً تولّى حماية النساء والاولاد والذهب بهم الى مدينة بيروت مع ما حفر حمله وعلا تمنة من الامتعة وفريقاً تسلّح وودّع اهله واقاربه وداعاً قد لا يعقبه لقاء . فكنيت ترى هنا طفلاً متعاقماً بثياب ابيه وهو يقول له كيف تركنا يا ابي ومن يبقى مع امي واحوايي وابوه يرفعه بيديه ويقبله ثم يسلمه الى امه ويوصيها به . وهناك امرأة تربط زنار الفشك ( الخرطوش ) على وسط زوجها وتناوله بندقيته ويطلقه وهي تنظر الى وجهه تارة والى اطفالها اخرى وترفع قلبها الى الله وقد يسيه ليردوا لها زوجها سالماً . وهناك رجلاً يودع ابن عمه ويقول له اودعك يا اخي المرأة والاولاد فيجيبه ذلك بامان الله كن مستريح البال فهم مثل اولادي واعز . واكثر الاولاد نيام يوقظهم امهاتهم فيفركون عيونهم ثم ينامون . والنساء الجبارات يحملن جرار الماء ليحجرين وراء الرجال . والجمال باركة تهدر والناس يحملون عليها امتعتهم وهم يتآمرون في ما يجب اخذه وما يجب تركه . والكارون يسبون ويشتمون وقد علت الجلبة واحلظ الحابل بالمابل ووقف الحجاجز بعضهم يشير بما يجب عمله وينبئ بحسن المصير وبعضهم يضرع الى السيدة ومار الياس ومار الطونوس وكانت ليله صفا اديمها واغنت دراريها عن بدرها فانسرفت تقابل بين توحش الناس واسس الوحوش ولما طلع الفجر ركب الامراء وهم بالعدة الكاملة مع كل واحد منهم سيف وقربينة وطنجان ومشى الرجال معهم ومع كل منهم بندقية ويحترق او بالة وطنجان او فردان . وسار حملة البارق في مقدمة الجبل وهم ينتشدون الا نشيد الحماسية رمشوا فورتاً فورتاً الى ظهر الوادي رهبدا وترسوا هناك واشرفت الشمس حينئذ وهدبت اشعها عليهم تكادت تسبي ابصارهم وقبل ان ينموا اقامة المتأريس اقبل الدررز عليهم برائتهم البيضاء واحلهم اراً حامية ومرت ساعان والحرب سجال بين الفريقين لكن الدررز كانوا اكثر عدداً راسم انتظاماً واطوح لقوادم فانام فريق منهم ببناءش الما اري ودار فريق من رائهم وكاد يقطع خط الرجعة عليهم ويشس النصرارى من الفوز فجعلوا يرتدون القهقري وكما وصلوا الى مكان تسهل المترسة فيه وقفوا واطلقوا بنادقهم على اعدائهم حتى اذا لم يستطيعوا قهرهم

## امير لبنان

بن بلوغ قراهم الى ان تخرج عيالهم منها وتصل الى بيروت  
- الحديث التالي بين اثنين من الدروز  
د - من هذا الحيال الذي ينحني رجاله والسيف مسلول بيده  
د - اتعني راكب الحصان الازرق او راكب الحصان الازرق  
د - راكب الحصان الازرق فاني اراه لا يحاف الموت  
د - هذا الامير عبدالله وهذا حصانه الازرق وهو مثل الازرق حصان عتق من سداد  
له بين خيول الشهابيين  
د - ان بندقيتك نظامية فلماذا لا تطلقها عليه  
د - نيشنت عليه مرتين وانا ارمي العصفور الطائر ولكني لم اصبه لان المجال بعيد  
ن لا يصل اليه  
د - لماذا لا يهجم عليه الشيخ حمدان وما هو نفع كخيلا ان كان لا يلحق الازرق  
ود - اخ  
د - مالك قم تتبعهم فقد قاموا من امامنا  
ود - الكاتبه ربك يصير سلم على ام قاسم وقل لها ربي ابنك حتى يأخذ بتار ابيو -  
ياسيد عبدالله - وارتمى على السميد فجره حامد الى وراء صخر ودنا من الشيخ حمدان  
ان راكب الحصان الازرق هو الامير عبد الله عقيد النصارى . فقال له ومن ابن  
فقال من حصانه . فلما سمع الشيخ حمدان ذلك اغمد سيفه وصلى قريبتة واعار على  
عبد الله وهو يقول في نفسه كسرنا القوم وقتلنا عميدهم حتى اذا دنا من الامير قال له  
ولا تقل اني غدرتك واطلق القريبتة عليه وكان الامير عبد الله قد تنحى من وجهه فلم  
شيء من حواشها ثم ارتد اليه والسيف في يده واطبق عليه وكاد يوقع به ولكن  
ربعة من اتباعه وهجموا عليه ببالاتهم فارتد عنه وهو يقول له ان كنت راعي كخيلا  
الي وحدك فارسا لفارس  
وكان بعض الدروز قد داروا من وراء النصارى واصرموا النار في بيوت الوادي وبعيدا  
والتفت النصارى فرأوا الدخان يتصاعد من بيوتهم فابقنوا ان الجنود المعسكرة في  
مية لن تدفع عنهم مكروها خلافا لمواعيد الوالي ان لم تكن ممالئة لعدوهم عليهم فارتدوا  
مض الدور وتحصنوا فيها  
والتفت ميخائيل الى منصور وقال له لقد دخل الامير داره وتحصن فيها ويظهر لي اننا

من رعلينا النجاة بعد ذلك فما لنا وليلة الحزن  
وحده في سنة ادم حنة لنا انا لا اذهب من سا

احميت الحديدة تركك و رب  
لامه اني لا اتركه

تأتي ورقته يذهب غصبا عن رقبتة في رأسك.  
لغة البيضاء خذها يا ملعون. وسدد اليه بندقيته  
جا من باب داره ومعه صندوق صغير فتناولوه

المصاري ان الدروز تكابروا عليهم وكادوا  
ار وتبعهم الدروز اى قرب الشياح وقتلا منهم  
اسم الملقب بابي طحين  
بعد شروق الشمس بساعة او ساعتين وتفرقت في  
ن ست سنوات فصاعدا ان يسيروا هذه المسافة  
وا معهم لحمايتهم اقمهم الحفر عند غروب الشياك  
بامر والي بيروت فلم يعودوا يستأيمون الرجوع

الثان عشر

بن الاميرة سني

اصل واجتمع بالسرهري وتداكرا مع القمصل  
ن احوال المصاري الذين وصلوا الى بيروت ذلك  
الذين اصلوا نار الحرب ووشروا الدروز الى ان  
جههم قد وصلوا الى بيروت وجعلوا ينتمون عن  
ابنها او احاها لم يعد مع الدين عادوا توتن  
لس تصرب صدرها وتوح رجا يفتت الاكباد

واجتمع كثيرات من النساء زرافات زرافات قد اسدلن التعور وجعلن يلحن بالناديل ويندين ويبيكين وسمع اولادهم صوت البكاء راينواح فعلا بكواهم وعويلهم وءام الرجال ينتهرونهم لكي يسكتوا او يتاركونهم في البلاء واجتمع عليهم اساء بيروت واولادها ياتونهم بالخبز والماء ويرثون ابلواهم وكان لا كبراله احل امدقاه واقارب نزلوا عليهم فوسع هؤلاء لهم في منازلهم واحلومهم على الرحب والسعة

وسار السرهنري والترجمان من محلة الى اخرى برون الرجال ويستقصون الاخبار والسر هنري يكتب في مذكرة كل ما يراه ويسمعه وكان يعلم اسم الاميرة سلى ويعلم انها شهابية ولكنها نسي اسم ابيها ولم يكن يدري كيف يسأل عنها ففرضى من العصر الى قرب الغروب ينتقل من محلة الى اخرى ومن حي الى آخر فلم تقع عينه عليها ولا على اسمها ولا على ابيها فزاد انشغال باله وكاد يبوح بما في نفسه للترجمان لعله يساعده على التفتيش عنها . وبينما هو في حيرة ولا حيرة الضب حانت منه التفاتة فرأى القزم الذي رآه في كفرشيا لما التقى بالاميرة سلى وامها على عين الماء بين كفرشيا والتسويات ورآه القزم فعرفه وجعل يناديه قائلاً يا خواجه يا قنصل ففهم له السرهنري واخذ بيده وكادت الدموع تهطل من عينيه لما قابل الحالة التي رآه فيها اولاً وهو يكاد يكون في مجالس انس الملوك والحالة الحاضرة والناس مرتمون على الارض كالانعام واطفالهم يبكون ويتخاطفون كسرالحز وكأنه كان يرى الف رقيب عليه فطلب من الترجمان ان يقول للقزم ليأتي معه الى دار القنصلية وبقص عليه ما حدث لهم . فقال له الترجمان ان القنصل يدعوك للذهاب معه الى دار القنصلية فقال حياً وكرامة . وكان القواسة قد احضروا له فرساً وللترجمان فرساً آخر فركبا وعادا الى دار القنصلية وعاد القواسة بالقزم اليها

وجعل الترجمان يسأله عن الامراء واحداً واحداً الى ان وصل الى اسم الامير عباس فقال ان الامير عباساً تخاصم مع الوالي فان الوالي طلب منه ان يوافق الدرور ويكون معهم لانه مسلم فرفض ذلك وذهب بزوجه واولاده الى ابنا عمه امراء حاصبيا منذ اربعة ايام . ثم التفت الى السرهنري وقال له والاميرة سلى معهم . ففهم السرهنري اسم سلى واستفهم من الترجمان عما قال فترجمه له فاظلم الضياء في عينيه ولم ينتبه الترجمان لذلك ولكن القزم انتبه له وقال اني رأيت الاميرة سلى يوم ارتحلوا وكانت تشير على ابيها ان ينزلوا الى بيروت وتؤكد له ان قنصل الانكليز يحميمهم وهو مصر على الذهاب الى حاصبيا ووادي التيم ولما فرغت حيلتها جعلت تبكي وتوسل الى امها لكي تقنع اباها بالنزول الى

بيروت او بالذهاب الى الشويفات الى بيت خالتها لان الامير احمد ارسل يدعوهم اليه ولكن  
الامير عباساً رجل عنيد لا يسمع رأي احد

ثم قال القزم للترجمان قل للقنصل ان الاميرة سلى تحب وكنت تريد ان تنزل الى بيروت  
لاجله. فأبى الترجمان ان يترجم هذا الكلام للسر هنري لكن السر هنري طلب منه ان يترجمه  
له فترجمه له فتضحك وقال قل له من اين عرفت ذلك. فقال اجبه ان العصفورة اخبرتني  
وانا وان كنت صغير الجسم لكن عمري اربعون سنة وانا اضحك الناس وضحك عليهم لاني  
اعرف ضمائرهم واقراء افكارهم في وجوههم وحركاتهم فاننا لما كنا على النجمة ورأيتهم واقفاً امامها  
قرأت في عينيها وعينيها رسائل الحب بينهما. وقل له ان الاميرة سلى في حاصبيا الآن  
ولا امان عليها هناك لان امراء حاصبيا مع النصارى ولا بد ما تدور الدائرة عليهم وليس لهم  
هناك مدينة يلجأون اليها مثل بيروت فان كان يحبها حقيقة فليبدل جهده في ايقادها. ثم نظر  
الى السر هنري وجعل يكله بالاشارات ففهم السر هنري بعض مراده وزاد استغال باله. قال  
في نفسه ان هذا الرجل المشوه الخلق اذكي فواداً من اكثر الذين رأيتهم في حياتي فطاب  
خاطره واخرج من جيبه قبضة من النقود الفضية واعطاها اياها وعرض عليه ان يبقى في  
القنصلية وينام مع الخدم اذا اراد فقبل ذلك شاكرًا وصار دأبه التردد على اللاحين  
الى بيروت والحجى باخبارهم فكان من افضل المخبرين واذكاهم فواداً واكثرهم تدقيقاً  
واصوبهم رأياً

وكان السر هنري يسمع ما يأتي به من الاخبار وهو يفكر في الاميرة سلى وما يحتمل  
ان يصيبها في حاصبيا اذا وقع بها ما يخشى وقوعه او اذا لجأ بها ابوها الى عرب البادية فتاهوا  
في القفار وغرا بعضهم بعضاً واخذت سبية وقد يراها امير من امرائهم فيتزوج بها رغماً عنها.  
وراجع ما كتبه فنصل صيداء عمماً بلفه من اخبار حاصبيا فوجد ان الفتنة ابتدأت فيها ولا  
امان على الامراء الشهابيين الذين هناك ولو كانوا مسلمين ولكن الحول والطول في تلك  
الجهات للست نائفة اخت الشيخ سعيد جنبالاط فعزم ان يكتب اليها لكي تحمي الامير عباساً  
وعائلته ولكنه عاد وتذكر ما قاله له القزم وهو ان الامير عباساً عنيد ولا يرضى ان يحتمي  
باحد من الدروز فرأى ان لا فائدة من الكتابة

ولا اشد على المرء من ان يرى نفسه مغلول اليدين لدى امر يسهل عليه عمله ولكن  
لا سبيل له اليه. فلو جاء الامير عباس الى بيروت لكنت حمايته وحماية كل الذين يلوذون  
به من اسهل الامور على السر هنري ولو كان الوالي ضده ولكنه احسار الذهاب الى مكان

بداخية البلاد دون الوصول اليه حرم تقدم  
 وكانت هذه الافكار لتتراد في سلسله من المشاورات والاشارة اليها  
 اضطرابه فظن ان ذلك شيء من هذه الامور التي يسألها  
 انه تم استطراد الحديث الى احوال اللاحقين في بيروت وتلك الامور التي يسألها  
 بل انه كان مشغول البال بامر آخر

### الفصل التاسع عشر

#### الدرولا العار

ومن يحشى اطراف الرماح وب  
 ابن من السباغات من الصبر  
 وان كربة الموت حلو مذاقة  
 اذا ما مرجاه بضيب من الذكر  
 وما رزق الانسان مثل منية  
 اراحت من الدنيا ولم تحز في الفبر  
 الا ربما كانت الصبر ذلة  
 وادق الى حال التي هي السمج  
 وقد يركب الخطب الذي هو قاتل  
 اذا لم يكن لا سلبه معرج

لا اثقل على نفس الحر من الصنعة يسديها اليه من ليس اهلها . ولا من الاقياد  
 لرأي ترى من نفسك بطلانه . هكذا كان شأن الامير عباس حيا عت اليه الامير احمد  
 يدعو الى الشويقات ليقم في حماه فانه لما اخبرته زوجته الاميرة همد بكلام الرسول همد  
 رأسه وقال الله الله صار ابن شهاب يحضي بابن ارسلان لا وتره احدادي تم نادى  
 بقلانه وقال استعدوا للسرفاتنا ذاهبون الى حاصبيا . وقال لزوجته لا يتكفي الذهاب الى  
 الشويقات والاتجاه الى بيت ارسلان ولا النزول الى بيروت لان الوالي على ما تعلمين وقد  
 سببت رأيه وحذرت عواقبه فحقد علي . ولا البقاء هنا لانه لا بد للدرور من مهاجمة الساحل  
 ولا يستطيع النصارى ان يشبوا في وجههم بعد ان كفل الوالي لهم الفوز فقولي للاولاد ان  
 يكونوا على استعداد فنذهب الى اولاد عمنا في حاصبيا ووادي التيم فانهم بعثوا يلجون علينا  
 بالذهب اليهم وربما ذهبنا من هناك ونزلنا على عرب الفضل فان الامير عمر الماعور ارسل  
 الي مرتين لنذهب اليه ونحن باختيارنا منازل البدو على غيرهم نكون قد عدنا الى احد او كما  
 يقول المثل اكلنا الفول وعدنا الى الاصول

وكان الشهابيون في كفرشيا والحديث وبعدها مرتاين في امره هل ينتصر دروز او

كلوه في هذا الموضوع وهو كان يعلم ان الحرب الاهلية تأول الى  
 كمن ولاية الدولة من ادلائهم وكان يسفه رأي القائلين بها  
 بينه وبين والي بيروت الى المغاضبة لكنه طلع بسواد الوجه مع  
 ولا هو ارضى النصارى وارباب كلاهما في احلاصه . واقام  
 طوب وكما حانت له فرصة وبج القائلين بهذه الفتنة وسفه رأيهم  
 ذا مقام حتى مطران المواربة صديقه الحميم اغناط منه وكف  
 الوالي يرى وخامة العاقبة فيأمر الفريقين بالتزام جانب السكينة  
 لدى عليه الى ان جاء الرسول من عند الامير احمد يطلب منه  
 ا . وكان يعلم ان الامير احمد رجل جد لا يقول الا ما يعني  
 له حينئذ ان الشر واقع لا محالة وان الدروز واقون بالفوز  
 هذه الثقة الا وقد أكد لهم الوالي انه ينصرهم بالجنود وترجح له  
 صدقه وهو ان الوالي اشترى رؤساء الدروز بالاموال الطائلة  
 ولما رام ممتنعين عن اجابة طلبه برأى بعض عقلم حذرهم  
 ال التي عرضتها عليكم اعطيها لخصومكم واساعدكم عليكم ان اتم  
 غرضه كان اتارة الفتنة على كل حال عملاً بمشورة الخبز الناقم  
 وعمل بعض الدروز برأيه مكرهين لانهم رأوا انفسهم بين  
 وما هذه اول مرة استحل فيها رجال السياسة اتارة الحروب  
 ية

نه لقد قضي الامر واتفق الدروز مع الوالي ووافقهم الامير  
 بجر عليه البلاء . فقوي الميل في نفسه الى نصره اثناء عمه لانه  
 اعمه في لبنان لا يأتمرنه فقال لا بد من الرحيل الى حاصبيا  
 لي ان سلام منله رهم من حرب النصارى

مير عباساً عازم على الارتحال الى حاصبيا فلم يعبأ اهلبا بارتحال  
 حرب ينتهي وكانوا يحبون ان الفوز سيكون لهم اذا انقذت  
 ن كانوا في بعيدا وهم ابطال مشهود لهم والدروز يحبتون بأسهم

سلي انا اباها يفضل الذهاب الى حاصبيا على البقاء في كفرشبا

او ابرول في بيروت . وكنت ابيع حبوب من وادي لبنان يستعدون حرب اهلية  
وكثيراً . سمعت به يتكلم عن اربعة مدن مهددة حركة وهم يستعدون عدهم بالصعب  
عاليين كانوا او معربين مستسلمين بحروب لاهية . وبنوهم عاتية وحسبت كل  
حساب لا حساب مذهب او حوزة ولا شعور من روت وبنوهم عاتية . فلما  
جاءتها امها تقول ما ن ابراهيم في اهداب . في حوزة وودي ابي عتت الى امها  
انظر المستفهم المرتاب وولدت حبيب الى حبيب . سمعت وكنت احذر في كتاب الى  
ابنة عمها الاميرة سعد هوفت اقم في يدك . وبعدي بخيري . وسمعت لها ان احمد ارسل  
يدعونا لنذهب الى داره فرمض ابيك ورسد من دعوتك . فعاتت بلي ادا قال  
ابي قولاً لا يرجع عنه وانت تعلمين صبيحة . ويسمى لا التسميم لا راديه

قالت ذلك لامها رأت اضطرب امر وراحت ان حسب سم اما هي فكنت كارهة لهذا  
السفر باخرة مئة اسد المهور تم مضت الى حرفة . وكنته بلي عراد هيسة . ان فصل  
الانكليز يحميهم ادا برلوا الى بيروت . واد فل حاس من بين عتتين ذلك ستصني يدها ولكن  
بدايتها كانت قوية فعات له ابي اشعر بهذا الامر من نصبي وقد سمعت احمد يقول غير  
مرة ان فصل الانكليز مضاد للوالي فاد اعرف . بيك وبي الوي ولا تد من ر يحميك منه  
فقال ابوها هذا قد يكون وقد لا يكون واسنة مساة حياة وموت وعار وشهامة ولا التي  
بيدي الى التهلكة وكانت تعلم انه ادا قل كلمة لا يعود عم وركنته . وراحت الى الكتاب  
الذي كانت تكتبه لابنة عمها وهي تقول في رسالها عن ابي احكامي وو دهست وترهت  
مثلا نخلصت من كل هذه الهموم وتجلت امام عينيها حينئذ صورة السر هدي لموت  
وكانت قد مضت ايام كثيرة لم تره فيها ولا سمعت عنه شيئاً ولا سمعت اسمه بلسان احد  
فجالت الدموع في عينيها وهي تقول ما استقي المرأة تحب فتصطر الى الكتف وتميت قلبها  
وعواطفها لكي تحافظ على عادات قومها . وانقد ضامنا عالت نسي ابي اسلوه فمضت الايام وانا  
لا ازيد الا اشوقاً اليه فاذا يصيبني اذا ابعدت عنه ولم يبق لي اقل امل ان اراه وراها  
القرم وهي على تلك الحال ورأى آثار الدموع في عينيها فلم يحم عليه امرها

ومضى النهار وهي سكرى لا تدري ماذا تفعل وكان الخدم يمشون ما يلزم احده من  
الامتعة ونهضوا في الصباح وركب الامير عباس وزوجته واولاده حيولم وحملوا الامتعة  
على ستة بغال ركب عليها بعض الخدم ايضاً وام يوسف معهم احذتها معها الاميرة هند  
لتسليتهم حتى اذا بلغوا نهر الدامور وجدوا الماء فيه غزيراً الى بطون الدواب وكاد يحمل



لجواني واضطر الامير عباس ان يعود اليهن ويتددهن  
هند والاميرة سلى فكانتا معتادتين ركوب الخيل فحاض  
جسا شراً . وتعدوا في البي يونس ووصلوا صيداء بعيد  
هو من اصدقاء الامير عباس ومن اهل التي وقاموا منها  
يها عند العروب وخرج الامراء التماهيون للقائهم ومعهم  
م وانزلهم على الرحب والسعة . واست الاميرة سلى بن  
با وان بعضهن كن متعلقات في المدارس الانكليزية  
امرة . ورأت عندهم كثيراً من كتب الادب فاحذت  
رماً في الشتاء المادي مما شغل بالها ولا يرحى تحققة في  
تقرهم المقام حتى وردت الاحبار ان الدروز هاجموا  
كثيرين من سكانها فعلا البكاء والنواح في دار الخدم  
ند بزوجها وتطلب منها ان ترجعها الى كفر تيبا وهي تقول  
اقل عقلي . وقلق الامراء لانهم رأوا ان الفتنة اوقطت  
كلها

## الفصل العثرون

## شكوى الحب

التقرير الذي ترع في كتابه للسفير اوسل صورته الى  
تم دخل شرفته واحد قلماً وقرطاساً وجعل يكتب لامر  
ديبه ولا سيما قرله ان الاميره سلى خيبة كما يجيها فاحذ  
قري لسان وما رآه من احوال سكانها العار من وما  
وم مما قاله لها مها اعطبت في جمال هذه البلاد لا اوفيهما  
لمدا في اجمل فصول السنة ورأيت بحيراتها وحداولها  
را في فصل الصيف واقمت فيها بحوثهمين وكفي لم ار  
في فصل الربيع . والباس هنا اهل جد ونشاط الرجال  
والساء يعزلن ويحكهن وكلهم يربون دود القرو ويستخرجون



ق عن الاسيرة سلى التي رأيتها في بلدة قرب بيروت وقد دار ابيها ثم بلغني ان اباها ارتحل بها الى بلدة تبعد نحو يومين مأمّن هناك ولا اخفي عليك يا اماء ان لهذه الفتاة في نفسي لم السن اقلين وحبها الي ولكنني كنت اشعر دائماً انها لا تنظر نهما نسيتهن الان او انها كانت تحبني محبة الصداقة او محبة الاقرباء لم تكني كلمة تدل على الحب ولا انا اذا كررتها في هذا الموضوع ك كنت اشعر من قلبي اني وقعت في نفسها كما وقعت في نفسي على التصوّر لا غير الى اليوم فسمعت اليوم ما حقق لي ظني لهرج الذي رأيت في دارهم فاحبرني بامور وفي جملتها انه عارف بي وان ابن خالته طلب الاقتران بها ورفضته وهو الامير احمد نا الخبر وزهايتها مع اهلها الى حاصبيا في هذه الاوقات بلبلنا الغد . لا داعي لاجبار اقلين بشيء من هذا القبيل بل يكفي الى مساعدتها وكرمها واقد اعطاها الله تروة وافرة لتساعد بها ق بكل ما يمكنها التصدق به وانا اراقب توزيعه على مستحقين ي خصوصية من حيث املاكهم وريعها وراتبه وعلم سيف سوربة

## الفصل الحادي والعشرون

### الشماليون في بيروت

الى مدينة بيروت بخدمهم وحتمهم واسنأجروا ررتاً رلوا فيها ن عما كانت وهم في درهم لان اكثر مواد الطعام هم والمنف املاكهم فلا يدنهور تمها اما الآن ماظطروا ان يتتروا الخنطة ون والحبوب على انواعها والشعير والذبن . وكان لا يزال عدم الذي باعوه ار انزوه معهم الى بيروت فانفقوه في ايام قلائل اؤستدانة منهم من تجار بيروت وصيارفتها فاشتل الدائنون زويداً زويداً يوماً بعد يوم ار بينهما الحد يث التالي

نقولا — هذه فرصة ددرة يا مارون اذا لم تستعملها سيقدم اليها شعور  
 مارون — وما هي هذه الفرصة ددرة عسى لا تكون متن فرصة الصوف التي  
 ربما بها عشرة آلاف ليرة

نقولا — من كان يعلم ان استرايلا تمتلئ حنم في سنة واحدة وثلاثة ايام صوقا ومع ذلك  
 يورط الى هذا الحد في المشتري والتخريص كان رأيك ورأي عمك وحيد ما هالك ابي  
 مدتكم الى الصنف وقلت انه يتضرر المصعود في سنة على ما كنت اقراء في الحرائد  
 اربعة وبناء على ما كتب لي عميلي من لاد الاكابر

مارون — ما علينا من مسألة الصوف في هذه الفرصة الددرة

نقولا — الشهابيون في بيروت وقد حاروا على ارض متد عواكل حريرهم وصرفوا  
 ولا امل لهم بشيء من مواسم العلال وهم يستديون المئة لان عشرين وبثلاثين ونحو  
 فاقم عازمون ان يسلفوا جلدهم اما انا ولا رأي في ان يديهم لاني لا استحسن ان يدي  
 ليرين وبثلاثين بل ان نشري منهم املاكهم في سقي بيروت ووصاير الكك مان كل  
 اتين الثوت هناك لم ويمكننا ان نشتريها منهم الان بارخص تم

مارون — اعرف كم ايراد الملك الان

نقولا — اضن ان الايراد قليل لا يزيد على اربعة وخمسة في المئة وكن اسعار  
 باصلاات ستزيد فيزيد معها ثمن الملك

مارون — كيف عرفت ان اسعار الخاصلاات ستزيد وما ادراك انما لا تنقص

نقولا — اني اعرف ذلك لسببين السبب الواحد يمكنني ان احرك في وهو ان دود الحرير  
 سرور في فرنسا وايطاليا وقد اجتهد الفرنسيون كثيرا في علاج الصرة فلم يجدوا سوا ملاحا  
 لا بد ما يرتفع ثمن الحرير فيرتفع ثمن ساتين الثوت هذا هو الامر الاول والامر الثاني  
 نبرك به على شرط ان تعدني انه يبقى الان في سرك

نقولا — اذا كان الامر يحتاج الى كتمان فاعدك بكتابه

مارون — لو ما كان يحتاج الى الكتمان ما كنت اطلب منك كتابه

نقولا — قل لي ما هو وانا اعدك بكتابه

مارون — اني اعلم عن ثقة ان عساكر فرنسا ستخزل سوريا والمرجح انه لا يمضي شهران  
 حتى يكونوا هنا

فلما سمع نقولا هذا الكلام ابرقت اسرته وقال اذا كان الامر كذلك فستضاعف قيمة

الاملاك حتماً فما العمل ومن يطلبها لنا من الشهابيين  
 مارون --- ليس لنا الا السمسار عنطوس فهو يدخل فيهم مثل النعس ويلبص عليهم  
 مثل الباطليوس

ثم استدعياهُ وسألاه عن الشهابيين وتدرّجاً معه في الحديث الى مسترى الاملاك  
 اي الاراضي المرروعة توتاً وجنّان في ساحل بيروت ووطاً نهر الكلب فوجداهُ على تمام الحبرة  
 باحوال الشهابيين واتفقاً معه على السمسرة وعلى ان يذهب ويعاين الاملاك ويأتيهما بوصفها  
 وقام من ساعده لهذا الغرض فاجتمع برحل اسمه عبد الله كان مستملاً اشغال امير من  
 اغنى الامراء واكثرهم اسرافاً . ويحكى عن هذا الرجل انه تورّط في احتلاس اموال مولاهُ  
 حتى اغنى واقنى املاكا وبنى دوراً فاستكى منه اولاد مولاهُ لا يبرم وقالوا له ان عبد الله  
 نهبك والناس كلهم يلوموننا لاننا ابقيناهُ عندنا كل هذه المدة فقال لهم ان هذا الرجل كان  
 جائعاً فشبّع الآن فاذا عرلناهُ واتينا باسان آخر يكون جائعاً فيضطر ان ينهب لكي يتسع بخير  
 لنا ان نبقى الشبعان من ان نستخدم رجلاً جوعان

وكان عبد الله هذا على ما يُطلب من اتساع الذمة فسارهُ غنطوس واتفق معه على قسمة  
 السمسرة مناصفة . وكان الامير قد ووض اليه عقد سلفه بالي ليرة ليرة في المساء بعد  
 العشاء وجعل يشكو من ارتفاع الفائدة وان المدايين ماسكون السكين ليدبحوا ذبحاً فلا  
 يعطون المئة باقل من خمسة وعشرين في السنة وبعد كل جهد ابرلم الى اثنين وعشرين  
 وكان الامير اכולاً بأكل دجاجة او دحاحين على عتائه ومضى شبع انكأ على  
 مسند الى ان ينام فيقلب الى فراشه قلباً وينزل دمه الى معدته فلا يبقى منه شيء رأسه  
 ما يكفي لتوليد الافكار او لتشغيل العقل فقال لعبد الله وما رأيتك ولا اظن ان احداً يديما  
 باقل من ذلك في هذه الصيقة . فقال عبد الله اني اهديت الى طريقة أخرى لاحد المال  
 المطلوب من غير ان يحسر حسارة تذكر وهي ان الاملاك التي تحت قناطر زبيدة لا يبلغ  
 ايرادها مئة ليرة في السنة ويمكننا ان نبيعها بالي ليرة وفائدة لالي ليرة ٤٤٠ ليرة على  
 الاقل فاذا بعناها نكون قد وفرنا ٣٤٠ ليرة في السنة وعندني سمسار يمكنه ان يبيعها لنا  
 بهذا الثمن اذا اعطيناهُ سمسرته

فتح الامير عينيه وقال له اعد لي ما قلتُ ثانية . فكرر له الكلام الاول بالتأني .  
 فقال وهمت وهمت نبيع العلة التي تحت القناطر بالي ليرة هي والمنظمة طيب نعت اكتب الحجة  
 حتى امضيها لك

وفي اقل من خمسة ايام اشترى غنوس حرجه نقولا و حوجه مدينت املاكها نحو  
 عشرة آلاف ليرة وهي تساهي عشرين و خمسين الف ليرة . و دري غيري من اتجار بذلك  
 فجعلوا يتسابقون الى مشتري الاملاك وهي من جى التهم بين لاهم هم تحدهم و العزحين  
 لقب الارض وحرثها و غرمها وكن لدين تعبوا على اشبه ما تها و وروها اما لم يتعبوا  
 بها فسهل عليهم بيعها وهكذا انتقل جانب كبير من املاكهم الى تجار بيروت . و لقد  
 احتسوا في ما فعلوا من بيع الاملاك بدل اسئدة اذموال و رهنهم لانهم لو استمادوا و رهنوا  
 املاكهم لتضاعف الدين في ثلاث سنوات فلدين اذموال عليهم بالبيع لم يضروه وكن جاءهم  
 الضرر من جهة اخرى وهي ان كثيرين منهم رأوا نوح التجار و مكاسبهم اكيرة فسوالت  
 لهم النفس ان يبيعوا املاكهم و يتجروا بغيرها و فاتهم ان التجار يمارس التجارة وذا و يربى فيها  
 من صفه حتى يتمرن عليها و يعرف اساليبها و اسرارها و بغير ذلك تكون التجارة خاسرة فلم  
 يمض عليهم وقت طويل حتى خسروا كل الاموال التي وضعوها في التجارة و هذا شأن كل من  
 يستسهل الاعمال و يتعاطاها قبلما يتمرن عليها

## الفصل الثاني والعشرون

### المذاكرات السياسية

اجتمع مجلس الوزراء في بلاد الانكليز للنظر في ما سيطرح على البارلمنت من المسائل  
 ومنها مسألة عن جبل لبنان و الفتنة التي انقذت بارها فيه . فقال وزير المستعمرات هذا هو  
 الامر الذي كنت اخشاه من حين شرعت الشركة الفرنسية في انشاء سكة المركبات من  
 بيروت الى دمشق فقد اخذت الآن نقول ان لها مصالح مالية في سورية لا يمكنها الاعضاء  
 عنها وانه لا بد لها من ارسال جنودها لحماية مصالحها هناك

فقال وزير المالية الى اين وصلوا في انشاء ذلك الطريق . قال ذلك موجهاً خطاباً الى

ناظر الخارجية

فاجابه وزير الخارجية لا يمكنني ان اقول بالثأ كيد الى اين وصلوا لانهم ابتدأوا من  
 اماكن مختلفة في وقت واحد على ما كتب يد الي قنصلنا في بيروت لان البلاد جبلية و  
 كثير من الآكام و الاودية و القدران و لا بد من بناء جسور كثيرة في اماكن مختلفة فبنوا  
 هذه الجسور و مهدوا الطرق بين جانب كبير منها على ميول معتدلة . و لا يسعنا ان نذكر ان

صار لهم مصلحة مالية ثابتة في البلاد ولنا نحن ايضاً مصلحة مالية بسبب تجارتنا الواسعة وهي اوسع من تجارة فرنسا بل مثل تجارة اوربا كلها ولكن ليس لنا رأس مال موضوع في البلاد مثل فرنسا الا اذا اشترينا الشركة الفرنسية . وقد خابرت بعض المالىين في مستراها فلم ار منهم رغبة في ذلك لانهم يظنون ان ترعة السويس ستبطل طريق التجارة البرية بين بيروت وبلدان المشرق وليس الاعتماد على تجارة دمشق نفسها بل على البلدان الشرقية التي تصل تجارتها الى دمشق

فقال وزير الحرية وهل تظن ان الفتنة خمدت واكتفى الفريقان بما حدث فاجابه وزير الخارجية كلا بل يظهر من تقارير قناصلنا ان النار لا تزال مخبوة تحت الرماد والله لا بد من امتداد الفتنة الى المدن الكبيرة في داخلية البلاد ودمشق نفسها ليست بأمن من ذلك . والقناصل باذلون جهدهم لاجتثاث الفتنة وحماية النصارى ولكن الامر ليس في يدهم لانه يظهر ان اوامر سرية وردت من الاستانة الى رجال العسكرية لايقاد نار الفتنة وليس المراد بها الفتك بالنصارى دون الدروز بل مساعدة فريق علي فريق فيصح ان يساعدوا الدروز على النصارى ويصح ان يساعدوا النصارى على الدروز والمراد اثار الفتنة على كل حال وتضحية بعض النفوس لغرض سياسي وهو تحريك اوربا لالقاء المسؤولية على الحكومة الحالية . هذا هو الغرض الذي يرمون اليه على ما اتصل بنا واخواننا عبر الخليج يرمون الى غرض آخر ولكنهم يتوسلون اليه بطريقتهم نفسها اي بايقاد نار الفتنة في البلاد ونحن نكاد نكون مغلولي الايدي وقد كتبنا قناصلنا في بيروت انه باذل قسارى جهدهم لايقاف الفتنة عن هذا الحد واطفاء نارها ويساعده على ذلك صديق قديم لنا من مشايخ الدروز له اكر سلطنة على جماعته فاذا نجح في سعيه ووقف الفتنة عند هذا الحد فلا اظن ان جيراننا يصرون على ارسال جنودهم الى سنك وادا لم تقف عند هذا الحد بل تهمت البلاد كما يحسن فلا بد لنا حينئذ من تدبير آخر

فقال وزير الحرية انا نطلب حينئذ ان يكون الاحلال مشتركاً ونرسل فرقة من جنودنا فقال وزير المالية وهل في الامكان ارسال جيش لان مع ما نحن فيه من الضيق المالي ولا ارى ان الميزانية تساعدنا على ذلك

ونظروا الى رئيس الوزراء كأنهم يطلبون رأيه فقال ليس من الحكمة ان نرسل جنودنا مع جنود فرنسا لانه قد يتوآد من وجود الجيشين مشاكل ليست في الحسبان وفوق ذلك فان جيراننا يستسهلون ان يرسلوا عشرة الآن مقاتل الى هناك ونحن لا نستطيع ان نرسل هذا

العدد ولا يلقى بكرامتنا ان يكون عدد جنودنا في من - سوريا في ثلثي عددنا حيث  
زيد ان يقوى وكفى ربحا - يسمون - ثلثي عددنا - يكون رسال جندنا باسم  
اورا كرا، وحيدر اسمل سيب. هذا الف لسبب من - رسال - سوريا وورنا حينما يتيسر  
الاستغناء عنهم

فاستصوب الجميع هذا لراي وصمو من ناصر احرار حيد - يكلم سفير روسيا في وسفير  
بروسيا قبلما يكلم سفير مرسا

واجتمع البارلمنت في المساء فذل احد لاعتداء قرأ في حر - اسير - ان حرباً اهلية  
نشبت في سورية وان لبعض الدول لاورية يدا في ذلك. هي لا - اتي عبد الحكومة  
وما هي التدابير التي عزمت على اتخاذها لانحد سنة

فاجابة رئيس المجلس ان ما قرأه حصرة العسوا احترام صحيح ووجه الاحمال واحكومة  
تنظر الآن في التدابير التي يجب اتخاذها ومتى قرأت سيرها - لا - عن اجبر المجلس بها  
فقال عضو آخر ان لما مضى - ية كبيرة في مدينة بيروت من يفتى على تلك المدينة  
وما هي التدابير التي اتخذتها الحكومة لوقاية مصاحنا هذه -

فاجابة الرئيس ان الاخبار التي وردت اليه حتى الآن لا يظن انها على مدينة  
بيروت وعلى ذلك فقد امرت نظارة البحرية بارجة من وصول اجبر المتوسط بالدهاب من  
مالطة الى سواحل بيروت وسواحل سورية

وقال عضو ثالث ان جماعة من المبشرين الانكاريين متشرون في مدن سورية من احدث  
الاحنياطات اللازمة لوقايتهم

فقال الرئيس يظهر ان قناصلنا لم يفعلوا عن ذلك ولا عن حماية المرسلين الاميركيين  
والمرجح ان المتحاربين يحترمون الراية الانكليزية مهما كانوا لان اعمال محريتها ايجابية في  
سورية ولا سيما في بيروت وعكا. لم تنس من تلك البلاد حتى الآن  
تم دارت المناقشة في مواضع اخرى داخلية وخارجية

اما في فرنسا فلم تدخل المسألة مجلس النواب بل اكدت الوزارة بمداولة فيها وبين ناظر  
الحرية ان الجنود مستعدة للسفر عند اول اشارة وان معارضات انكلترا على ما جاءهم في  
التقارير السرية لا يعبا بها لان انكلترا لا تستطيع ان ترسل جيشاً مثل جيش فرنسا ولا  
تستطيع ان تمنع ارسال الجيش من فرنسا بعد ان يتفام الخطب في سورية ويتحفز نصارى  
كسروان للاخذ بشار اخوانهم



## الفصل الثالث والعشرون

## استفحال الفتنة

مُرَّ الدروز بالفوز المبين الذي فازوه في ساحل بيروت وودعوا الاكتفاء به حاسبيت  
انهم قهروا الشهابيين وهم عمدة النصارى الآن والى بيروت لم يكن من رأيهم فجمع  
بعض امرائهم الى الحازمية خارج بيروت وقال لهم انكم لم تفعلوا شيئاً حتى الآن ولم يرل  
النصارى اقوى منكم كثيراً ولا بدء لهم ان يأخذوا بالثار ولا سبيل لضعافهم حتى نامنوا شرهم  
الآن بتخريب مدنهم الكبيرة زحلة ودير القمر وجزيرن وحاصبيا وراشيا فازحفوا عليها والفوز لكم  
فدبت النخوة في رؤوس البعض منهم وقالوا له سمعاً وطاعة وخاف البعض الآخر سوء  
العاقبة ولا سيما لانهم كانوا يعلمون ان دول اوربا لا يمكن ان تسكت عن ذلك فقالوا له انا  
في المتن والشوف والعرقوب ووادي التيم كثار ولا يعسر علينا التغلب عليهم ولكن لا ينبغي على  
دولتكم ان نصارى كسروان اكثر منا كثيراً فاذا جاءوا لنصرة اخوانهم فلا طاقة لنا بهم  
فقال لهم انا احتطنا لذلك ونصارى كسروان لا يجركون ساكناً ولو تظاهروا بمساعدة  
اخوانهم ألم تروا كيف انفض جمعهم من بعدنا حالما امرناهم بذلك . ثم انصرفوا من لدنه  
واكثرهم واثق انه يفعل ما وعدم به

ووصل الى دمشق في تلك الاتناء رجل اسمه صادق افندي وجعل يجتمع بمشايع  
الدروز من حوران وبعض مشايخ لبنان حتى اذا اتم عمله الذي حضر لاجله أمر بالعودة الى  
الاستانة بعد ان اسر الى الوالي بما جاء لاجله . ويقول اهالي دمشق ان سارك الوالي تغير  
معهم بعد سفر صادق افندي

ثم اجتمع الدروز وحاربوا اهالي جزيرن وبكاسين وحرقوها وقتلوا كثيرين من سكانها  
وزحفوا بعد ذلك على زحلة وكان كثيرون من نصارى العرقوب قد قاموا لمعاونة اهاليها  
فالتقوا بالدروز عند ظهر البيدر وكادت الدائرة تدور على الدروز وقتل هناك ابن عقيدم علي  
ابن خطار العمد . وكان الشيخ اسمعيل الاطرش قد جمع دروز حوران وعربها عملاً بامر والي  
دمشق وقام بهم لخدمة دروز لبنان حتى اذا دخل وادي العجم وجد فيه بعض النصارى من افليم  
البلان فقتلهم وهم ١٣٥ نفساً وسار برجاله الى ان وصل الى زحلة وفي اتناء ذلك وصلت اليها  
فرقة من الجنود العثمانية وعسكرت امامها وحيثما هجم الدروز عليها من الجنوب والغرب فصد  
اهاليها هجماتهم وهم مشهورون بالشجاعة والفروسية وظلت الحرب سجالاً الى ان قدم عليها

رجال من الدرزي من خدة الشريفة وكان لاهدي يتدرون سارة من يوسف بك كرم  
فظنوه تجدة استطارة مكنتهم . بيد ان يوسف حتى خده يمتد من السار على الحامية  
فانهمزمت من امامهم ورأى هدي زحمة من دروز دحاه مدينتهم من دروزهم فارتدوا  
رويدا رويدا وغلوا يديهم من امامهم وازحوا كبر سار في زحده وساروا الى  
جهة بسكتنا . والظاهر ان الخوف من العرب وجمود المدينة كان من اسباب ولولا ذلك  
لتعذر اخذ تلك المدينة

وكان في زحمة رجل من اهلي دير قهر رأى ما جرى من دنوة مغير من الشرك مدرة وان  
لا بد من الرحف على دير القهر فكتب الى ترجمان قنصل الانكليزي في بيروت بحره بما جرى  
في زحمة وتبا يوجس منه وتوسل اليه كي يمدل كل ما في وسعه ليجر قنصل على الذهاب  
الى دير القهر بانفسهم لانه اذا احط الدرزيون بما بقي لاهلها هرب منهم

فسعى الترجمان مع غيره من وجود دير القهر المتوحشين بيروت على قنصل الدول  
فلبوا طلبهم واتفق قنصل انكثرا مع قنصل فرنسا على الذهاب الى دير القهر ولودها ما حدث  
شيء مما حدث فيها وما حدث في غيرها بعدها ولكن وفي بيروت وقع قنصل مرسيان لا  
داعي لذهابهم وانه هواي الوالي يرسل قومندان مركز نولاية مدينتها وقل مثل ذلك  
لقنصل الانكليزي واقنعه بان لا داعي لذهابهم . ثم ارسل القومندان فذهب وجمع شيخ الدرزي  
وحرصهم على الفتك بالنصارى . قيل ولما رأى سعيدك حنبلاط منذ ذلك عت اثنين من  
خواصه الى اهالي دير القهر يطلب منهم ان ينزحوا اليه الى الخدرة اذا ورقب القومندان  
فصدق بعضهم كلامه وساروا اليه فحماهم واما الباقون فجمع امير لاي المساكين العتابة  
سلاحهم بعد ان تهددهم بان لا امان لهم ان لم يعطوه السلاح وكانوا قد افوا كل ما عندهم من  
البارود والرصاص فسلموه اسلحتهم فادخل الدرزي الى مدينتهم فنهبوا ثم ذبحوا كل الذين  
التجأوا من الاهالي الى سراي الحكومة . قيل وكان متسله دير القهر مخالفا للامير لاي في  
هذا العمل الوحشي وحمى كل الذين التجأوا الى دارهم من الاهالي لكن الامير لاي امر السنود  
والدروز ان يدخلوا دار المتسلم عنوة ويقتلوا كل من لجأ اليها ففعلوا ثم ار المتسلم نفسه جزء  
قصص المنون بعد ان عاد الى بيروت

هذا بالاخصار التام اما التفصيل فتشعر منه الابدان وتذوب له النفوس امي فانهم  
كانوا يذبحون الولد على ركة والدته وينزعون الطفل من يد امه ويضربونه بالسيف  
فيشطرونه شطرين ويردونهم اليها قائلين خذيه فقد اسكتناه لك ويقطعون اوصال الرجل

عد من الذكور وقد جنّ بعض النساء ممّا رأين من الفظائع  
 ذا اطلق العنان لشهوة الغضب وما اقبج التعصب الديني اذا  
 ين يخالفونهم ديناً . واقبح من هذا وذلك تدبير المذابح وتنظيمها  
 لك الوالي وزبانيته وتلك الفتنة الطاغية في الاستانة فانه كان  
 أول اليه الحال ولكنهم اغمضوا عيونهم لكي لا يروا وصموا

ت الى الكولونل روز قدصل الانكليز الجنرال في بيروت  
 في حاصبيا ورأشيا وخلاصته ان الامير سعد الدين كان في  
 اية على بلاد حاصبيا فاعطيت لابنه الامير احمد وكن احمد  
 طلب منه ان يعود الى حاصبيا مع فرقة من الجنود العثمانية  
 دروزها . واستشار الامير سعد الدين صديقاً له من  
 هب لئلا يفتاخذ الدروز من مطالبتهم بالاموال في ذلك  
 من الذهاب لكن الوالي لم يعفه بل اضطره اضطراراً  
 اذا وصل الى حاصبيا وطالب الدروز بالاموال الاميرية  
 من كل الجهات المجاورة لها . فخرج النصارى منها لئلا يشتبه ثم  
 هجم الدروز على بيوتهم وسلبوها ثم حرقوها وقال امير الالاي  
 ان يحميهم ما لم يسلموه اسلحتهم فسلموه اياها فبعت بها الى  
 نعمهم من الحرب منها . وبلغ القناصل في دمشق ما حدثت  
 طاً كردياً من دمشق لياقي بنصارى حاصبيا اليها وقرّ القرار  
 فطلب ان يؤذن له بضرب الدروز ان هم منعوه من جلب  
 ذلك فرفض الذهاب على هذه الصورة فاستدعى الوالي  
 اوراً الى حاصبيا ومعه الاوامر اللازمة لادبير الالاي الجنود  
 بيوم واحد ادخل الدروز الى السراي التي فيها النصارى  
 يح الغنم ومثلوا بهم تمثيلاً ثم صعدوا الى دار الامير سعد  
 وقتلوا صهره الامير جهجاه واربعة آخرين من الامراء  
 صارى . وهجم دروز حوران على راشيا فادخلهم الجنود الى  
 التجأ اليها من النصارى وبلغ قتلى حاصبيا نحو ٧٠٠ نفس

قتلى راشيا ٥٠٠ وقتلى دبر التمر وما جاورها نحو ١٥٠٠ نفس قتلوا كهم في الدم البارد بعد  
ن سلوا المحتتم لرجال حكومتهم

ولا تحسبن الدروز كهم استركوا في هذا العمل الفظيع - اصتهم وعامتهم . كلا فان  
ض العامة وكثيرين من الخاصة كانوا اشد الناس مردة للمصارى فدافعوا عنهم وحموم  
بيوتهم من كل اعتداء ولولاهم ما نجا احد

ولما اطلع السرهزري بدمونت على ما حل بحاصبيا حيث كانت الاميرة سلى ووالداها  
جفت شفتاه واصطكت ركبته وكاد يغمى عليه ثم غلى الدم الاسكتسي في عروقه فاحمرت  
جنتاه ونهض وجعل يمشي في غرفته ذهابا وايابا بل يركض فيها ركضا كمن يطارده عدو  
دخل الكولونل روز عليه وهو على تلك الحالة وكان قد قرع الباب مرارا ولم يسمع عجيبة ففتحه  
ناثقا ان يكون السرهزري مريضا فلما وقعت عينه عليه قال له السرهزري قرأت تواريخ البشر  
لحاضرين والغابرين فلم ار ولم اسمع ان دولة تقتل رعاياها لغير اثم ولا حرج قضاء المآرب  
بخصية كيف صبرنا على هذا الجور وكيف نصبر عليه . اذا رأينا رجلا يعذب نعمة او  
صفورا بغير سبب ألا تعرض له فهب ان هؤلاء المساكين نجاج او عصافير افلا تقضي  
لشفقة علينا ان تعرض لمن يمسك الرجل منهم ويقطع اذنيه ويديه ثم يذبجه ذبحا . ألا  
تعرض لمن يلقي راس الولد على ركة امه ويذبجه عليها ألا تعرض لمن يأخذ الطفل الرضيع  
من يدي والدته ويطعنه بخنجر ثم يرده اليها والدم يسيل من صدره . ما هذا التوحش  
ما هذا الجود الذي نحن فيه . اين الشهامة اين المروءة ثم ما حال اولئك الارامل التاكلات  
لنأثحات النادبات وما حال بناتهن اذا كن قد تركن لهن واين مقرهن الآن . وفي تلك  
اللحظة عينها خطرت بباله صورة سلى ممزقة الاذيال تجري بين الصخور والادغال ووراءها  
يغد يحد في اثرها فجمد الدم في عروقه ثم انتفض كما انتفض العصفور بللة القطر وقال  
للكولونل روز ألا تظن اني استطيع ان اقوم ببعض ما يجب علينا اذا ذهبت الى صيداء  
واستصعبت فصلنا او بعض القواسم ومضينا الى جهات حاصبيا ووادي التيم نفتش عن الذين  
سلوا من القتل والموت فنغيثهم ونأقي بهم الى بيروت

وقبل ان يجيبه الكولونل على ذلك شعر انه اخطأ في ما قال لان غرضه الاكبر من هذا  
الذهاب شخصي وقد عبر عنه على اسلوب يفهم منه انه مجرد عن كل غاية شخصية فلام نفسه  
على ما فرط منه واستدرك قائلا ولي في ذلك مأرب شخصي لا اخفيه عن الكولونل . ثم  
قص عليه قصته مع الاميرة سلى من اولها الى آخرها

مير عباساً وبوده لا خلاصه ويعلم انه على خلاف مع الوالي وانه  
كنه لم يكن يعرف شيئاً عن ابنته ولا عن علاقة السرهنري بها  
مة وشعر بسلمطة الحب شعور من نسي صديقاً عزيزاً ثم التقى به  
قم ولا تتأخر ساعة واني لاستغرب سكوتك عن ذلك الى  
هذه الاميرة لك ولكن مهما كان شأنها فليس من الشهامة  
الوقت وانت قادر على مساعدتها . لو كنت مكانك لذهبت

لك وقال له يشق عليّ جداً ان اتروك في هذا الوقت مع  
هذا الحر الذي يكاد يزهد النفوس ولكن ما دام الذهب

. القواسمة ان يعد ما يلزم لذهابهم الى صيداء وجهات مرجعيون  
تب الى امه بخلاصة ما بلغهم من اخبار المذابح وطلب منها ان  
تدقات من اهل البر والاحسان وقال لها ان ما ترسلونه من  
ليه اعظم شكر لان علينا ان نطعم الوفاً من النساء والاطفال  
م لاقلين وبالالتجاء الى كرمها وحنانها

### الفصل الرابع والعشرون

#### حادثة دمشق

ني ولا اشد منه خطراً على البلاد لاسيما وانه سلاح الرعاع  
وشاً ضاربة لا تأخذهم شفقة ولا رحمة . ويا ويح بلاد يطلق  
الانتقام من مخالفهم مذهباً فان التاريخ يشهد انهم كانوا  
وتكبون اقباح الموبقات مع اسياهم الذين هم غرس نعمتهم . واي  
كيناً في بيتك وتأمته على اولادك واموالك ثم تراه وقت الشدة  
والخنجر في يده يغمده في صدرك وصدور اولادك لكي يغتتم  
تصل الى هذه السراسة ولكن ابن آدم يقدم عليها عفواً اذا  
ديني . كذا فعل اليهود بالنصارى والنصارى باليهود واهل  
نة باهل الشيعة ولا تزال امثال هذه الفظائع تجري في بلدان

المشرق وان زالت الآن من بلدان المغرب حتى لقد يقف امره حراً بين فوائد الاديان ومضارها وايها اكثر لنوع الانسان وان شئت فقد انتظعين في الاديان لان الدين بريء مما فعله المنتطعون فيه باسمه

اهالي دمشق من مسلمين ونصارى من الين الداس عريكة واكثرهم وداعة وقد عاشوا السنين الطوال متآلفين متحابين والنصارى قلال العدد جداً وكانهم عاشون في حمى المسلمين وهؤلاء اهل نقي ومسالمة ولا سيما الكبراء منهم ولكن لما اراد ذوو الشأن ان يوقعوا الخفاء بينهم وبين المسيحيين لاغراضهم لم يتعد رعيه ان يجدوا من يجيب بداهم من العامة فخرضوهم واطلقوهم فانطلقوا كالنار في المشيم يذبحون ويفتكون الى ان جرت الدماء انهاراً وحل بالمسيحيين هناك ما لم يحل بهم مثله من زمن الفتح الى الآن . ولولا بعض الصلاح ذوي الشهامة والنجدة لما ابقى الاشرار على احد . كل ذلك والواي متسلح بالاوامر السرية التي في يدم وغير خائف ان يطالب بشيء مما فعل

ووصلت اخبار هدم المذابح الى بيروت وهاجر اليها من بقي حياً من نصارى دمشق وسائر مدن الشام التي اصابها ما اصاب دمشق فازدحت بهم منازلهم وتوارعها وسائيتها حتى كنت ترى عائلتين او ثلاثاً في غرفة واحدة بل اخرجوا الدواب من مرارها وسكنوها . والاولاد المعتادون رفاهة العيش كانوا يفتشون عن اوكار العمل لياكلوا ما فيها من الحبوب واذا اصاب احدهم رغيماً اجتمع حوله عشرون من امثاله يقامونه اياماً

وبادر اهل البر والاحسان في اوربا الى معونة اولئك المنكوبين بسخاء حامي فارسلوا اليهم اكياس الدقيق واثواب القطن والصوف وكثيراً من المقود واقامت التجار في بيروت لتوزيع الاحسان ولولا ذلك ل مات كثير من جوعاً

وظل المنكوبون في بيروت ينقلبون على مثل جمر الغضا ويبحث بعض النساء عن ازواجهن واولادهن وهن لا يعلمن في عداد من قتلهم او لم يزالوا في قيد الحياة وكل يوم يصل جريح لم يجهز الاعداء عليه فبقي مغطى بالقنلى مغمى عليه من كثرة ما نزل من دمه الى ان افاق ودفعته بقية الحياة الكامنة فيه الى الحرب فجعل يسري ليلاً ويخبي نهاراً وهو يسد رمقه باعشاب الارض الى ان بعد عن مواقع الخطر . والاطفال الذين ارضعتهم امهاتهم لبن الحزن يموت الواحد منهم بعد الآخر . وقناصل الدول يكتبون الى دولهم يشرحون لها وقائع الحال وهم مجمعون على استقبال ما جرى واستغفاعه . ورجال الدولة متربصون ليروا ماذا تكون العاقبة وهم يكدون تارة ويشحنون اخرى فائلين ان لا شان للدول الاجنبية حتى

رعايهم . ووحوش البروطيور السماء فزت نفوسها من اكل  
 مها الطبع اليها وبعدها الشيع عنها وهو شعور جديد لم تعرفه  
 . منازل اكلتها النار والنجوم نتطلم عليها فلا ترى فيها غير  
 م الله على خلق الانسان كما ندم في عهد نوح وود ملائكته ان  
 يطهرها من الاشرار

ان كانت ارض الموعد جنة الله في خلقه الارض التي كانت  
 لتي نشأت فيها دمشق وصور وصيداء واورشليم وبيروت وعكا  
 د وصناعة الفينيقيين التي طمع فيها الفاتحون من كل الاقطار  
 . بلاد الضيافة والشهامة وعزة النفس . هذه البلاد اوصلها سو  
 يجرش بينهم ليفترس بعضهم بعضاً

نغرو الى ابن

ونا راجع الى البيت والله ما عاد لي نفس اجلس في القهوة  
 جرى

ال ان السفرا والقناصل طلبوا من كل مشايخ الدرور وشنقهم .  
 قل هو خبرني انا القظها طائره من هنا كلمة ومن هنا كلمة . والله  
 ، لطلعوا مقابل كل الافرنج

ت ان فرنسا عازمة ان ترسل عسكرياً كبيراً الى هنا  
 ح من قال لك ذلك . فرنسا كانت مع مولانا السلطان وقت حرب  
 ، الكلام بسرك زادوها قال قتلوا كل الصاري في التام . هذا  
 لبار . الله يساعدا قل آخري زمان قرب وقت المهدي . ما سمعت  
 الامير احمد انا ربيته وبالي مشغول عليه سألت الوالي عنه قال  
 ورا . الله يهونها آخري زمان آخري زمان

ر مع قدورا افندي على ما تقدم كان الخواجه بخور الخواجه شمعون  
 فتمها من دمشق وفي ما يخشى منه على بيروت  
 ه هائلة وقد انتقمنا منهم على ما جرى لنا في مسألة البادري نوما  
 الذي كان في بيت الخوري وكل شيلان الكشمير

فقال شمعون وما ادرانا انهم لا يرتدون. اية نعمة يحصلون منها  
بذور — كان نالي مشعولا من هذا القبول في اول الامر. لان مقد احسان فان  
نحنا، درودا في اسد، ببول وتت مكاتب توصية بوي ما في نشه وسيفي بيروت حتى  
حواسا الدين في دير التمر ما اص مه شي، لله يهونها على البريل فهو يحس نشه القاهي  
شمعون — والصيبي الذي اشتروه هل هو شي، بحر.

بحور — شي، لا متبل لذي في قصور الموك فامه ككوا يتوار، انه آاس حد صحون  
زبادي وقوارير كبيرة وصغيرة من كل الاتكل ومعه قديم حد عمرة اكثر من  
لف سنة وكان الناهيون عزمين على تكبيره وكو ريك حميد وصل يوسف اليهم قبلما  
كسروا سبيلًا مة، وانتراه كله ليرتين وادا كان هو كل الصيبي الذي اعرفه في وي حمسة  
آلاف ليرة واشترى ايضا من نيلان الكتشير ما يد وي اي ليرة على قوله ولم يدفع ثمة  
لانحو عشرين ليره. اما العصيات والحاس ولا تال عنها لانها كثيرة جدا وتساقي  
لناس الى مشتراها

شمعون — اذا سنة مباركة وهل تظن انه يحدث شي هها  
بحور — لا يبعد فاني كنت عند الوالي امس فكلمي بالتخيخ ولم يعرج ما ر واحاف  
من المراكب الحربية لانه اذا جاء مركب واحد حربي لا يعود حد يحمر على شي  
شمعون — والاخبار من لدرا

بحور — الدنيا قائمة قاعدة هناك الاعضاء في مجلس السوب بساور الوراثة مئة سوال  
كل يوم. والقسوس يعطون في الكنائس ويحرضون الناس على الدولة. والتميجة طيمة على  
كل حال لانهم يجمعون الاموال ويرسلونها الى هها. هذه حلاصة بحر مكتوب وصلي اليوم  
يوسف — الله يصرفها على سلامة اقول لك مال الدنيا يتي في الدنيا وانا قلبي ريتي  
فاني حينما اري هؤلاء الارامل والاطفال يتفتت قلبي واثذكر الايام التي كر يصير فيها سا  
مثل ذلك واخاف ان يتقلب الدهر والدهر دولاب فيصيبنا كما اصابهم. انه امرايل حي لا  
يموت الله ينجينا من اولاد الحرام

بحور — الحق معك مال الدنيا يتي في الدنيا هذا سلون مات وماذا خذ معة ولكن الله  
أوصانا ان نجمع مال الامم. ألا نتذكر ماذا قال لنا لما أمرنا بالخروج من مصر. والمال قوة  
كما يقول الانكليز

ودخل ثالث فانقطع الكلام في هذا الموضوع



## لفصل الخمس والعشرون

## توقع القضاء

راحدا حياء بيروت قليلة صغيرة مشفرقة بين بساتين التوت  
سارى الدين سلموا من المذابح فكانت ترى البيت الذي فيه  
ولم يكدا يستقر بهم المقام حتى احذ الرجال منهم بفتشون  
لساء الحى في تسليك الحرير وكبة فاكسبن ما ساعدن  
لم يترك الاولاد يلعبون في الشوارع بل أرسلوا الى المدارس  
ولادهم من الضروريات التي لا بد منها فترى الرجل يقتصد  
رأة تببع حلاها وتعلم اولادها ولا يكتفون بتعليم الصبيان

وهي غرفة واحدة على دائرها مقاعد من الخشب والاولاد  
لم جالس على كرسي الى جانب الباب وامامة مائدة صغيرة  
من الرمان - وقف ثلاثة اولاد امام المعلم وجعلوا يقرأون  
اميركية وييامهم يقرأون والمعلم يصلح اعلاطهم وبأمر المجتهد  
طويل القامة اسمر اللون عابس الحبين لابس دامرا مرخي  
لطول قامته فنفض المعلم واقفا اكراما له ووقف التلامذة  
ياسر في ادنه ككتين تم حرجا من المدرسة ووقفا امام الباب  
من حيث اتي ودحل المعلم وقرع الحرس وقال للتلامذة  
وايمنة ولا يسرة ولا تتأحروا في الطريق وقولوا لاهالكم  
سعة ايام وحذوا ككتكم معكم

كتابه او كرامته وتكتفوا وخرجوا في صف واحد تم  
ولم يكادوا يصلون الى بيوتهم حتى وجدوا فيها حركة غير  
بين للحيء بهم وقابلهم امهاتهم بلهفة وادخلتهم حالا الى  
معن القليل من تياهم وبرزمنها

أل تكبار منهم اباهم وامهاتهم عن سبب هذا الاضطراب  
وهي تقول لاختيا "مس قتل مسلم وبدهم يقتلوننا كلنا"

امسكت امها بكتفها وهزتها وفات ما اسكتي يا معسوبة  
 ما ارب تلك الساعة وما تعلق على العوس . خوف مؤمنة من الارامل والايام  
 لذين نجوا من المذابح وقصدوا بيروت للاحتمة بهم . خوف من النساء الموقى دبح رحلمن  
 اولادهن امام عيونهن . خوف من الصيبر والبيات لذين جوا مع امهاتهم وساروا يوماً  
 مديوم مشياً على اقدمهم الى ان سعو بلاد الامن . مئت من الرجال الديق ساعدتهم  
 لتقدير على النجاة وعلى كل منهم ان يعول عائلتين او ثلاثة من عيون حوته الديق ذهبوا  
 سداء السياسة والتطمع - كل هولاء اتجأوا الى مدينة بيروت وهم يحسبون انهم نجوا من  
 كل خطر وفي ساعة واحدة رأو سيف اقتمة مسولاً فوق رؤوسهم فتصورو المشاهد  
 لتظيعة التي مرت بهم منذ سبر او شهرين ورأو فير اتلاء القتي ل نزل شوك والدم يفور  
 ن جراحها وايقنوا ان نجاتهم كانت حلاً مرة واقعى وان السب نهم لا محالة ولم يبق  
 م مهرب ولا نصير . الجبل وراءهم محروق القرى وابجر امهم يرسي ويزيد

مضى العصر ومالت الشمس الى المغيب وضأت حلال النيويت والانتيجر واكدرة ماء  
 ليجر بعد صفائه وبدت تياتير الشفق فوق جبال س وامتدت اصعة من السرق الى  
 غرب . الطبيعة ساكنة جامدة ولكن النفوس حاشدة مصطرة

ماذا نعمل يا رجل والى اين نذهب بهولاء الاولاد اولاد . اولاد حيب واولاد صهر  
 ليس لنا مهرب الا الى بيت ابرهيم فانه واسع وله حنة كبيرة منية ولا لدا ما يجتمع  
 به كثير من اهالينا واقاربنا فدافع عن افسا الى ان يفرحها رسا

وبعد قليل جمعوا ثيابهم وساروا هي وزوجها وسلمتها وانشة حميها واولادهم الى ان وصوا  
 الى بيت الخواجه ابرهيم وهو من وجوه بلدم وكان قد نجح مع الديق نحو احتى بيت الست  
 ثقة ثم هرب بعد المذبحة ورحل الى بيروت واستأجر بيتاً كبيراً فيها لانه كان على شيء من  
 ثروة . ولما ات اموال الاحسان جعل وكيلاً على توزيعها فخص نفسه بجاب كبير منها . اما  
 لان فهرب من بيته الى بيت رجل من وجهاء بيروت له بوابتان الواحدة داخل الاخرى  
 هو احصن من بيته وكان صاحبة مشهوراً بتجاعته وبانه من امهر الرجال بلعب السيف  
 لكنه كان قد هرب من بيته والتجأ الى دار وجيه كبير من اكبر اغنياء بيروت فلما وصلها  
 جدها مملوءة بالناس الديق التجأوا اليها من التنازحين ومن اهالي بيروت انفسهم والدار كبيرة  
 احتها مرصوفة بالحصى الملونة ولما سور عال على دائرها وفي وسطها حديقة غناه فيها من  
 واع الازهار والرياحين وفسقية كبيرة يتدفق الماء منها وعلى جانبي الحديقة بناءان نجبان

ن الكبيرة الدالة على غنى وافر ولا عجب فان صاحبها جمع ثروة  
من التجارة والمراجمة لكنه شعر الآن بالخطر كما شعر غيره فاخذ  
الى سفينة بخارية كانت راسية في المرفأ ووافاه اليها اولاد عمه  
نة وعزموا على السفر تلك الليلة تاركين الدار تنحى من بناها  
والرجال يعدون ما وجدوه من الاسلحة ليدافعوا بها الدفاع  
والى السيدة والاولاد سهرروا مع والديهم الى ان غلبهم  
كنهم وجالت نفوسهم في فردوس الاحلام يملحون بالعابهم  
ن في تلك الليلة الأعيونهم

ث احدها الآخر عن حركة الامير بشير الاولى والثانية وعن  
بنا التباريح ولكن لم يحل بنا مثل هذا الضيق ايد بمحونا ذبح  
ولا احد يدفع وقد تحلى الله عن شعبه واسلنا الى يد الاعداء  
يام كما انبأنا الجفر ولكن لا بد ما يأتي المسكوب من اقصى

د خراب البصرة وما نفع مجيئه الآن وقد اجتمعت طوائف  
بيروت

؟ ينزل رجال كسروان خلاصنا اين يوسف كرم واين

يوسف كرم مخاوذ معهم ولكني لا احط بدمتي وعلى كل

ن الله على تلك الايام ولكن ما العمل والسن له حق  
تطيع رفع البندقية ولا يزال الرصاص في مخذي من ايام  
الله علينا ولكن لا بد ما يجي المسكوب قلبي يقول لي ان  
نراها غدا

وقال له اين عساكر فرنسا التي وعدتنا مجيئها فاننا لم نسمع  
عازماً على النزول في البحر مع الدين نزلوا ولكننا لم نكتب  
تربناها اخيراً من الشهابيين واخاف ان يصيبهم شي

مارون — احق يدك وكن ذ صاهم شيء وك رة من معه اداء كي يصيبهم  
فماذا تنفع الحجج  
تقولاً — صحيح ولكن امال اعز من لروح واد تأحرت في المغزن حتى صفت استغالي وما  
وصلت الى البيت لا منذ ساعة ولولا ذلك لالرمتي ام متري ان تدل اى ايجر مع الدين نزلوا  
مارون — هل تظن ان درس اعدت عن ارسال عساكرها  
تقولاً — كلاً ما اعدت ولكن الاكبر وضموها الف عرفولة لاهم لا يريدون ان  
تأتي وتأخذ البلاد وحدها

مارون — الله ينجينا من مناظراتهم ويصرفها على سلام  
تقولاً — اظن انها تنصرف فان القناصل اجتمعوا كهم وذهبوا الى انوني ودر كوه  
بالمسؤولية واجتمع عقلاء المسلمين وبهوا على الهلاء في الجوامع ان لا يفعلوا شيئاً وقد سمعت  
الآن وانا داخل انهم قبضوا على القائن وقتلوه وكن الاشرار كثر ويقال ان العسكر معهم  
وهذا الذي يخوفنا . وارسل القناصل يطلبون مراكب حربية فاذا وصل ولو مركب واحد  
لزم الاشرار حدم

مارون — الله كريم وكيف حال بخور وشمعون واحواهم  
تقولاً — ما على قلبهم فان الوالي طمنهم بنفسه

مضى الليل بتباريح واشرفت الغزاة وانعكست اشعتها عن وحوه صغراء لم تمض لها  
عين وعيون غائرة لم يغمض لها جفن واطمال يكون وينجبون طابيس كسرة حنز او ترة  
ماء ولم يكن الا القليل حتى اهتزت تلك النفوس طرأ كأنه بسلك كهربائي وحمل الالوف  
يستشرفون البحر او يصعدون على السطوح ليتمكنوا من رؤيته وهم يقولون اتى اتى الله بصرة  
الله ينصره

في اقصى الشمال بارجة تشق سطح الماء وقد رفعت شراعها للسيم واستعانت بما فيها من  
البخار يقودها الامل ويسوقها الواجب وكأن اله السلام اوحى الى ربانها ان قم على عجل  
واقصد مدينة بيروت فهناك مئة الف نسمة حياتهم معلقة بخيط من العنكبوت . فقام لا يلوي  
على احد واستعان بالرياح والبخار حتى اذا اشرف على المدينة جعل يطلق اكبر ما عنده من  
المدافع فاهتزت المنازل وتكسر زجاج الشبايك واخذت الدهشة قوماً والفرح آخريين .  
احذت الدهشة رعاغ القوم الذين يتوقعون الفتن والثورات لكي يطلقوا نفوسهم المنحطة عنانها

واحد الفرح العقلاء والفضلاء الذين يعلمون ان الفن تفضي  
الحما

ساعة من الزمان وقال له الحمد لله على انفراج الازمة . فقال  
فقد اويت في بيتي ثلاثين عائلة من هؤلاء المساكين وكنت  
وادفع عنهم الاشرار . انا لا افهم هذه السياسة سياسة والينا  
شرح وفي اي سنة تحرّض الرعية بعضها على بعض — الله  
فذوا الآن على ايديهم فقد جاء المسكوب وسبع دول ما وقفت  
كسر نصف الزجاج في شبايك بيتي

كبير لم ار مثله في حياتي مع اني سافرت الى قبرص والى  
لوا بالقاتل  
ا وقتلوه

نه لم ينكر انه هو القاتل — على كل حال انقضى الاشكال  
سفت رأيه ووافقني اكثر اخواننا ولكن هذا الثرثرة ابا نجر  
مة يحضره الوالي في مجلسه وقال ان عنده كتابات من كل  
مدون لاول اشارة حتى ينزلوا على بيروت فقلت للوالي سلمنا  
لي حسب رغبتك فمن نجينا بعد ذلك من الفرنسي والانكليز  
رين على الاروام . فقال لي حملك يا حاج مصطفى حملك اما  
ك ساكنا نعم ان اهاليها ترسل الصدقات ولكن رجال الحكومة  
لحالة الحاصرة لا بد من تغييرها . وقد اصرفنا من عنده  
ونهبنا في الجوامع حتى لا يصير شيء وقد أتت هذه الفرقاطة  
ن ويحامل ويقول انه كان بادلاً غاية جهده في حفظ الامن  
سيرال

: السلام للفرقاطة

كن كان صوت مدافعنا مثل صوت الفقاعة

قضى الاشكال

ولكن الله يسترنا من عواقبها

وانفجرت قلوب الالوف من سكات بيروت والللاجئين اليها على انوحجيء البارجة  
وسية وجعلوا يعانق بعضهم بعضاً ودفن بعضهم بعضاً بالسلامة وعاد كل الى منزله

## الفصل السادس والعشرون

### الذهاب الى العرب

وصل الامير عباس وزوجته واولاده الى حاصبيا كما تقدم وخرج الامراء الشهابيون  
جالم للقائهم الى سوق الخان ولم يقابنوم باطلاق البنادق على جري العادة لان الامير عباساً  
سل ينهام عن ذلك وامراء حاصبيا نفسهم كانوا يحذرون ايقاط العتنة باية وسيلة كانت لكن  
هم لم يجدهم تقملاً . ولما وصل الامير سعد الدين الى حاصبيا مرسلآ من قبن واي دمشق  
مع الاموال الاميرية من الدرورقص على الامير عباس ما اشار عليه به احد احدقائو في  
شق وكان الامير عباس يعرف هذا الرجل ويعرف انه واسع الخبرة شديد الفراسة فقال  
امير سعد الدين لا رأي لي بالاقامة بينكم بعد الآن ولا اظن انهم يضمرون كم لا التمر.  
دعاني الامير عمر الفاعور امير عرب الفضل اليو قارى في تلبية دعوتو السلامة . تم اخبر  
جنه واولاده بما عزم عليه فوقع الخبر على زوجته وقع الصاعقة لاما كانت ترى البدو  
ين يشتون في ساحل بيروت وهم في حالة من القدر تسمى منها النفوس قطت ان كل  
لدومثلهم اما الاميرة سلى فطربت اولآ لهذا الخبر لانها كانت تود ان تقف على حال  
دو في قفارهم وترى معيشة نسائهم وبناتهم وتحقق بالخبر ما قرأته عنهم بالخبر . وكانت  
ب ركوب الخيل فتصورت نفسها راكبة مع اميرات العرب يجبن القمار وينشدن الاسعار  
لربت نفسها لذلك ثم تذكرت انها تبعد عن السرهنري وقد لا تعود تراه فحنق فوادها  
سعد الدم الى وجهها ثم نقلص عنه فاصفرت وجنتاها وارتمجت تفتها وجالت الدموع في  
بنيها فالقت جبينها على يدها وحاولت ان تنسى كل شيء حتى وجودها

وسر اخواها بهذا السفر لانهما كانا يجبان ركوب الخيل ايضاً ولم يغتظ منه الا امها  
ام يوسف وكادت ام يوسف تعدل عن الذهاب معهم وودت ان ترجع الى كفرتيا او  
روت ولكنها لم تجد من يوصلها اليهما فعاتت تندب زوجها واولادها وسلمت بالذهاب مع  
لاميرة هند مكرهة وهي لا تشف لها دمة

وكان الامير عباس على وفاق مع الست نائفة اخت سعيد بك جن بلاط فارسلت معه  
ثنين من رجالها ليوصلاه الى عرب الفضل ويخبرا الدرور الذين يلتقي بهم في الطريق انه

سير سابقاً كما ظننت الاميرة هند ونزلوا في الطريق على مشايخ  
لوا المزار في جبل عجلون فالنظام الامير عمر بخمس مئة فارس راح  
به وكات عيوه مبثوة في البئذ فاوصلت اليه اخبارهم قبل وصولهم  
عباس ترجل الاميران وتصالحا فترجل المراسن كلهم في اقل من  
اد. ثم دنا الامير عمر من الاميرة هند وقبل يدها وعاد الى الاميرة  
فحة وقبل يده بعد ان صالح بها يدها وكانت مسفرة عن وجهه ينجل  
لظبي وقد توردت وجنتاها من هواء الصحراء ومما جاش في صدرها  
مدفق كالسيل المنهم كآن الاخلاق التي غرست في نفوس اسلافها  
مل لم تزل من خلفائهم بل بقيت آثارها فيهم تظهر كلما حانت لها

في نحو الخامسة والعشرين طويل القامة ابيض الوجه اسود العينين  
لي جاري عادة العرب ولا حدل شعر رأسه كما يفعلون لان اياه  
فعلوه مبادئ العلوم وزار دمشق غير مرة وتزيا بزبي اهلها وكان  
الاحمر فوكة رداء من الموح الرصاعي وعلى رأسه كوفية وعقال  
يايه ورائحته على انه عائش في نعمة ونعيم فسرت الاميرة سلى

ب الفرسان لركوبهما وانشقوا سطرين فسار الامير عباس والاميرة  
والاميرة سلى ورائها واخواها ورائها تم سائر الخدم والحتم الى  
ن السهل قد لثم الجبل فصعدوا في بين المناهل والغدران وواصلوا  
وصلوا الى مضارب الامير عمر فلقرا مئآت من النساء بالمزاهر  
وهن ينشدن نشيد الترحيب ويقفن

هلا بالضيف امير شهاب عزيز ومهاب  
سيوف الفضل وكل الفضل لآل شهاب

نقول الدور والباقيات يرددن عليها على نقر الدفوف والمزاهر  
اميرة سلى ووقفنا هنيهة تسلمان عليهن ونقولان مرحباً بالزينات  
الفخار حتى اذا دخلنا الحلة وجدنا الاميرة عائكة ام الامير عمر  
ت على الاميرة هند مصافحة واعنقت الاميرة سلى وقبلتها في

وجنتيها. وجلس الاميرة وحدهم في مضرب صبير ولا ميرت وحدهم وقد مت لهم كههم  
القهوة الجديدة وكؤوس الشراب تم مدت سبعة اظفار وعين السرمي شجرة وكان عند  
الاميرة عاتكة جارية تحسن اشبع التركي سمعت بالاميرت من اسعاه واحلوى لم  
بأكلن اطيب منها

ولم يكن الامير عباس ضعيف البنية ولكن الترفه كثير و قد قطع تصدعة اضعفا جسمه  
صار لا يقوى على عوادي لادواء وكانه اكل سعفا غير صالح وشرب ماء تصرق اليه  
لفساد وهو ات في الطريق او اترت فيه حرارة شمس واصابه مرض حرمه كد بتم عشاءه  
حتى اصابه صداع شديد وكانوا قد اعدوا له مفرجا حيا وقد ايد وحانت نضه ففقيا  
ما اكله وحجم واصابه شيء من المذيان. واحبرت زوجته واولاده وتو مصر وقد تولاهم  
لقلق ولما رأت ام يوسف التي قالت ان سيدي مسموم قلت ذلك همس في اذني لاميرة هند  
خرجت تدعو الخدم ليأتوها بكثير من اللبن حتى تسقيه وفيهم الامير عمر مرادها فاسودت  
لدنيا في عينيه وقال لها اننا اكلنا معاً من خروف واحد وعن سوط واحد وشربنا القهوة من  
الاية واحدة وانا شربت قبله. فاخذت تعذر عن نفسها وقالت ربي يكون سيدي قد  
رب شيئاً او اكل شيئاً في الطريق واتوها بكثير من اللبن نكن الامير اني ان يشربه  
وأرسل الامير عمر اربعة فرسان الى دمشق يستدعي طبيباً من امهر اخصائها

واشتدت الحرارة على الامير عباس الى درجة لا تنطق حتى كاد يشتمل تم انحطت  
ريعا وجعل يشكو من ضيق النفس والعطش الشديد وجعل جده يجف ثم يتدلى بلعرق  
واليك ونبضة يسرع ثم يبطئ وازرق وجهه وعنقه وتمبضت حدته ثم تسعت واصابت  
شجات صرعية وعقب ذلك سيات عميق

وكان في القبيلة شيخ كبير مارس صناعة التطيب من غير معلم ومن غير كتاب دفرا  
اي عرفه عن ابيه وجدته ومضيفاً اليه ما عرفة بالاختبار فاستدعاه الامير عمر حلاً ومر  
سب الماء الكثير على رأس الامير عباس قائلاً ان ما اصابه خربة شمس. ورأت الاميرة  
ند ان ما قاله الرجل صواب لان الشمس كانت حارة وكان نورها ساطعاً جداً حتى اضطرت  
ن تسدل نقابها على وجهها اكثر الطريق ولم تخف حرارتها بعد غيابها فاذنت لهم في صب الماء  
لي رأسه وخالفتها ام يوسف في ذلك وهي تقول مموه يا ستي مموه اسمعي مني واسقوه  
ابن وزلال البيض لكن الاميرة هند لم تصغ اليها بل امرت بصب الماء وكان ماؤهم بارداً  
ان الارض جبلية فانتمش الامير عباس قليلاً ثم عاودته الحمى واسلم الروح



## الفصل السابع والعشرون

## الماتم

تمرُّ الرزايا بالمرء فيراها عن بُعد ويستعظمها قبلما تصل اليه ويظن انها اذا وقعت به ضاق بها ذرعاً لاسيما وانهُ يعظم امرها في غيره ويعجب من صبرهم عليها ثم اذا حلت به فالغالب انه يصبر عليها ويمجري معها كأنها امرٌ عادي وقع له لان الامل بالنجاة منها يخفف وطأتها ويحلي مرارتها . ولكن اذا جاء المصاب الاكبر ونفذ سهم القضاء وانقطع الامل من البقاء وخطف الموت عزيزاً ورأى المرء امامه رزية لا يمكن دفعها ولا منعها فقد صبره وغاض ينبوع امله وضقت به الحيل وارتد دمه الى قلبه فلم يعد يغذي دماغه لتذكيره بالمواعظ والحكم . فيسمع منك اقوال التعازي ويقول سمعت وفهمت ويكون قد سمع وفهم ولكنه لم يع شيئاً - حالة لا يتصورها الآمن وقع فيها ورزىء بفقد عزيز ولاسيما اذا كلف سنده الوحيد ومدبر امره

هذا ما اصاب الاميرة هند واولادها وهي غريبة نزيلة على قوم من البدوي بلاد لم تطأها قدماها من قبل وبين اقوام لا تعرف احداً منهم كان زوجها يعرف الامير عمر ويعرف اباة وقد حارب معه كثفاً لكتف في عهد ابراهيم باشا لكن ذلك كان قبل ان اقترنت به . وكان الامير عمر يواصلهم بالهدايا ولكنها لم تر صورته الا ذلك اليوم فلم تكذ تأنس به وبامه حتى وقعت بها هذه الضربة الاليمة وقد عاشت مع زوجها نحو عشرين سنة على تمام الهناء والصفاء وكانت تهتم به اكثر مما يهتم النساء بازواجهن عادة لان معرفتها غرسوا في ذهنها انه هاتك ولا بد لها من ان تجاهد جهاداً مستمراً في الصلاة لاجله . فاكثرت من الصلوات والندور في السنة الاولى والثانية ثم رأت ان زوجها افضل سيرة وسريرة من كل الدين تعرفهم حتى من رجال الدين وسمعت مرة واحداً يتلو آية من التوراة مفادها ان كل من يعمل البر فهو مقبول لدى الله مهما كانت استه فانبجلى لها وجه الصواب وقالت ان الله لا يأخذ بالوجوه بل الناس لديه حسب اعمالهم ونياتهم . وكانت لا ترى من زوجها الا العمل الطيب والية الصالحة على ما فيه من الرزاة والوفار ومجادلة الناس بالحسنى حتى ان المطران كن يسر بجديته ولا يسمعه كلمة تفيظه فزال التسكوك من نفسها ومنعت القسوس عن الكلام معها في امر زوجها . ثم لما كبر اولادها اتجه همها كله الى تعاليمهم وتهذيبهم فلم تعد تهتم بالخلاف الديني الذي بينها

وبيته ولم يجردوا بس لم يكن من بيت ابيه لانه يرى في قسامة ترها في فلما  
رأته لآل مصرحة في مرة لاحر - - - - - كانت يدا رجعت تاديه  
وتكثرت تم نلبها عواصها واسوت لاله في سيرة وسوت

ونلب الحزن الاميرة سلى وحذب دوس موت شمسة كبره تكلم تسبع كره امها  
حتى وقعت على الارض ونزحت رأسها في صدر ابيها وهي تبكي وتقول يا بني يا بني رفاخت  
الدموع من عيون اخويها وجعلها يبكين ويحجبون وقد قدم كل منهما في راحة من مضرب  
ووقف الامير عمر حائر في امور رأى هذ مشهد وتسمع صوت يندب الاكفاد وعروفت  
عيناه بالدموع وتكنه لم ينس هول الموقف وما يطاب سنة ويظاب في موقف يفكر في امره  
وجلس ام يوسف على الارض وقد غلبها الحزن في تحاول مدب عن جري سادتها فلما  
كانت من الناديات الشهيرات وكان حزن شديد يكلم لانه

وعلا البدر قصرت ظلال المضارب وانتد حلكم بالنسبة في انور ندي حولما ونحلته  
الكلاب من كل ناحية فانقطع عواء الذئاب خوفا ورهبة . وركت جمال ورغبت امتيران  
بالاغنام تجتره وتلوك جرتها على مهل ووقفت الصفات الجياد تعمض جفونها تم تعجبا كما مر  
خفاش من امامها . ونهدت النيران امام المضارب وعلا تيق الضفدع من حواب العدران  
حيث تظالها اغصان الصفصاف والبان فامتزج في خريراء امترج الحسيني . معتيران . واجتمعت  
الظفائش على اشجار الاجاص والزعرور تحتهم وتصيح ولكنها لا تتن من الحجاج اسبح  
لانها تكتفي بالكفاف من الطعام ولا تفعل فعل ابن آدم الذي لا يكتفي حتى يبعثهم يطعم  
يا في يد غيره ويجور على ابناء نوعه

ودخل الامير عمر مشوره وجمع رؤساء عشيرته الاذنين وتمس عليهم ما حدث ولا حصار  
فقال ان اباي كان متأخيا مع الامير عباس من عهد ابرهيم بن ابي ابي (١) وقد اوصاه  
ابوه قبل وفاته ان يحسب الامير عباسا عمما له ويبره به بر الاب بابنه وان استعداه البد الى  
جبل عجلون لما علم ان في النية قتل امرء حاصبيا واللاجئين اليه ولكن يظهر انه كان مريضا  
فانثرت فيه الشمس وقتلته والطبيب يقول انه مات من ضربة الشمس ولا بد من ان يطالبه  
الشاهبيون والحكومة بدمه قبلما تنجلي لهم الحقيقة ولكنه واثق ان الاميرة هند وابنتها الاميرة  
سلى تقرران الحقيقة وهي انه وصل المضارب متعبا ثم اكل من الطعام الذي اكل منه ولداه  
واصحاب المنزل واصيب بعد ذلك بصداع شديد وحى وقضى نحبته قبل ان يشرب دواء . قال

(١) ان يحرج كل منها يد ويص كل واحد من دم الاخر

وقد احضرتكم الآن لاستتيركم في امرين الاول ان الامير عباساً كان مسلماً فهل ندع الامام يغسله وندفنه مسلماً والثاني هل ندعو رؤساء العشائر كلهم وتقيم له مأتماً يليق به . قال ذلك واوماً الى شيخ كبير السن تيببت الايام رأسه ولكنها لم تحن ظهره كأنه يطالب منه الجواب على سؤاليه

فقال هذا الشيخ اما عن الامر الاول فالرأي عندي ان نستتير زوجة الامير ونعمل بقولها ولا سيما اذا وافقها عليه اولادها واما الامر الثاني فواجب الضيافة وعيد الاخوة بين الامير المتوفى وبين المرحوم ايكم يقضي علينا ان نحفل بمأتمكم كما احفلنا بمأتم ايكم ووافقه سائر الرؤساء والمتساخ على ذلك وللحال نادى الامير عمر بالساعة وبعث معهم الى كل احياء قبيلته وعين وقت الدفن عصر اليوم التالي واعطى الطيب خنجراً من عطر الورد حتى يصبه في الماء الذي يغسل الميت به فيمنع فساده . واوصى مدير بيته ان يغر مئة خروف وعشرة جمال ويطبخها كلها غداءً للجموع التي تحضر المأتم وان يطبخ معها عشرين قفة من الارز ويخبز ما يكفي ثلاثة آلاف نفس ويفعل كما فعل في مأتم ابيه بحيث تكون مضارب طبخ الطعام مفصولة عن المضارب التي يقام فيها المأتم ولو لم تكن الارض سهلاً كما كانت حينئذ

واتم هذه المهام كلها بما لا مزيد عليه من السرعة وعاد الى المضرب الذي فيه الميت وكانت امه قد جلست الى جانب الاميرة هند تشاركها في البكاء والنوح ووقف خدم الامير خارجاً يبكونه ويندبونهُ ولا سيما حربي اولاده وكان رفيقاً له في صباه وشبابه وشهد معه المواعظ التي حضرها وقضى عمره عزباً منقطعاً لخدمته وخدمة اولاده فتعرا الآن كأنه فقد ركنه الوحيد في الدنيا وجلس عند باب الحيمة يبكي سيده ويمدده ويلوم الموت لانه لم يأخذه بدلاً منه . وجلست ام يوسف الى جانب الاميرة سلى وهي تندب مرةً وتنوح أخرى وبنات الجميع على هذه الصورة الى ان ثقل سلطان الكرى على الاجفار ولج الامير عمر على الاميرة هند واولادها لينهضوا ويناموا في مضاربهم مؤكداً لهم انه يتولى حراسة الميت نفسه وقد يُظن لاول وهلة ان مضارب البدو خالية من كل وسائل الراحة والرفاهة ولكن ليس الامر كذلك لان امراءهم على ثروة واسعة وهم يترددون على المدن القريبة منهم ويقبسون ما فيها من الكماليات لا سيما وأنه يزورهم رجال الحكومة احياناً وينزل بعض السياح عليهم ضيوفاً فيضطرون الى اقتناء الامتعة الفاخرة مما يلزم لراحتهم ولذلك تجد عددهم الفرش الويرة مهياً للضيوف ويقتنون الجوارى المعتادات على خدمة اهل الرفاهة وامت الاميرة هند وابنتها في مضرب مبطن بالحريز على فرش وثيرة تغطيها دتر من الحريز والكتان ونام ولداها في

مضرب آخر متصل به وانضربان الى جانب مضرب ام الامير  
 واصبح الصباح وسومت الانعام واجتمع الخيامون تخاطبوا مضرباً كبيراً من مضارب كثيرة  
 لفتوها معاً وسمكوه على عمد عالية وتدوا اطناءه فكان منه قبة واسعة كقبة نجران ووضعوا  
 الميت في نعش كبير مجلل بشالات الكتشمير وصبوا له دكة في وسط القبة وسرجوا اربعة من  
 الخيول المظهمة ووقف السياس بها امام المضرب

ولم يمض ساعتان او ثلاث من النهار حتى انتظم عقد اللائحات حول العرش وهن  
 مسدولات الشعور وقص بعضهن شعورهن وطرحنها عليه اكراماً لليت وجعلت ام يوسف  
 وامرأة من البدو تباريان في انشاد ايات النذب والرتاء والنادبات يرددن اقوالهما والاميرة  
 هند والاميرة سلمى لا تكفان عن البكاء حتى نقرحت امامهما

واعدوا نعشاً آخر يمثّل نعش الميت وجعلوا فيه حجارة كبيرة وجللوه بشيلان الكتشمير  
 وجعلوا يحمّلونه ويرفعونه فوق رؤوسهم ويطوفون به حول قبة الماتم والجياد الاربعة ماتية  
 امامه وعلى جانبي كل جواد رجلان معهما سيفان مسلولان فوق ظهر الجواد ورجل ثالث  
 يقوده ووراء العرش شاعر يعدده وباقي الرجال يرددون ما يقول ومن ذلك قولهم

يا سيدي ويا سنجق كل القول لك يلبق

لما شاعت اخبارك الشركا لبست الازرق

يا سيدي ويا ابن دلال ياربع الشكل بالمال

فان السيف خبوني لغير سيدي لا تعطوني

ابن الكان ينقلني ويرخي بنودي عالشروال

وكما اقبل فريق من قبائل العرب وقف في اول الميدان هنيئة ونادى بصوت جهوري  
 معدداً مناقب الميت ثم تناول العرش من حامليه وظاف به حول القبة على ما تقدم واستمر على  
 ذلك الى ان يصل فريق آخر ويتناول العرش منه ودام الحال على هذا المنوال الى ان  
 تكبدت الشمس السماء

وكان رؤساء القبائل جلوساً مع ولدي الامير في مضرب كبير تجاه قبة العرش يدخنون  
 التبغ ويشربون القهوة فلما بلغت الشمس الهاجرة جاء الخدم واخبروا الامير عمران الاسمطة  
 مدّت للطعام في مضارب الرجال وجاءت الجوارى فاخبرن امه بعدها في مضارب النساء  
 فنهض الامير ودعا رؤساء القبائل وسار امامهم فجلس نحو منتهي نفس من الرؤساء دفعة  
 واحدة ولما شبعوا جلس مئتان غيرهم وهم جراً الى ان بلغ عدد الآكلين اكثر من ألفي نفس

والاميرة سلى فاكتامع ام الامير عمر في مكان  
عاماً

فن عائلة الامير عمر في سفح ذلك الجبل ودفن فيه  
الكبيرة وودعت الجماهير الامير عمر وابني الفتيد  
لي مضارب مضيع الرشد لا يعلم ماذا يفعل  
افواجاً افواجاً كل يوم يعزون ولدي الامير تكسبه  
يل ولما انتقضت الثلاثة الايام وثلاثة بعدها جلست  
اولادها وجعلوا ينظرون في ما يحسن بهم عمله في  
رة الامير عمر ورجاله او يقون عندهم الى ان تنجلي  
اميرة سلى وكان لها الرأي الملقى ان الفتنة لا تزال  
في بنا ان تكلف الامير عمر الذهب اليها في هذه  
خرفصل الخريف وحينئذ يرحل الامير عمر من  
ان يوصلنا الى دمشق . وقلبي يحدثني ان قنصل  
ينا ويرسل الينا من يردنا الى بيروت ان لم يأت هو  
كلينز لانهم ينقلون لهم البريد بطريق البر الى خليج  
في هذا الموضوع لما زارنا آخر مرة

فانت تعين السر هري الذي زارنا مع ابن  
بين انه يبحث عنا وكيف يستطيع ان يهندي الينا  
ان . وتسمع ما يقوله اخواك وصبيهما  
عند الامير عمر الى ان يفرجها ربنا . واما صبيهما  
ار الامير احمد وهو يدبر طريقة لحمايتهم وكادت  
الاميرة سلى رفضته ووافقها اخواها لانهما كانا  
تبع

سها وبين الاخوين وصبيهما واخيراً قالت الاميرة  
الرهان الى ان يفرجها الله فاننا لم نر من الامير عمر  
لا اظن انهم يسمحون لنا بالرحيل عنهم الآن ما

يرني اولادهم وذهبهم الى المدرسة

دامت التلاقح فثمة في جنس البشر وكل اسلافه بدماء نعمة  
 ودنا اخواتها من امها ورحمها يدبر يتالاهم ويتوالى بهم ودمهم ما انزل على بني  
 هند ونحوس تربة وامداد ان فسد نبتة ترحل مع الامير ودمت مع من عيني الاميرة  
 هند لما قال ولداها ذلك وصنعت هدية توفيت منه يريد ان يرضى من صميمها شيئا من عزمه  
 ان يرسل رسولا يود الامير حمد كين كانت حين وكتب الامير حمد كرمه ويواصله  
 باهدايا واعطاء مرة خنجر محلي بالذهب والفضة من عصمة سلك اسبكرة قصد استئثاره  
 اليه حتى يمدحه اما الاميرة سلى كبر ذكر اسمه ودمها لا تسير الى اسه هاري اوحس  
 شرا وكانت الشئون قد خمرت نفسة قبل الان واسمع الامير حمد كرمه حاف ان  
 يطلب من الامير عمر ارسال الرسول لتلا يرضى ذلك ويعتب الاميرة هند فعزمه ان يتصاحب  
 مع غيره من الامراء ويرسل رسولا من رحاله  
 وائلت الاميرة سلى الاميرة عائكة ام الامير عمر وجعلت تعلم في مسرما سنة بعد  
 ساعة تسمع منها اخبار العرب وفصصهم عن الجن واليلا والخراب والبروات واحدا احوالها  
 يخرجان مع الامير عمر لصيد والتنص وخابت لها الاميرة هند اما لا يرة هند وسوحت  
 كثيرا لبعدها كل اقرارها عنها

## الفصل الثامن والعشرون

### خطر غير منتظر

مضى على قبائل العرب اكثر من اربعة آلاف سنة من حين ورد ذكرهم في التاريخ  
 لكتوب والفقوش وهم روجل يعيشون بالغرب واليهب وتربية اموتني وحين تسمع تجر ولم  
 تغير حالهم  
 قامت ممالك اسور وبابل وصور وصيداء ومصر والنوبة وايعت تم نطت وترخت  
 يقام اليونان والرومان ودوخوا المعمور تم زالت دولهم وخرج من العرب اس لمعو في موهم  
 لب الهند والصين شرقا واطراف اوربا وافريقية غربا ولكن السا البادية استبين فيها توا على  
 بداوتهم لهذا العهد يعيشون في الخيام ويضربون في التجماع الرزق ويغزو بعضهم بعضا كما كانوا  
 يفعلون منذ الف سنة والفي سنة . وقد يظن ان بداوتهم هذه على تاسليا فيهم وتمكها من  
 مروقهم تفارقهم اذا خالطوا اهل الحضارة وراوا فيها من الرفاهة ما ليس في البداوة لكنهم  
 يروا في البلاد التي حولهم لهذا العهد ما يرغبهم في الحضارة فبقوا بعيدين عنها ما امكن

ولما لم يكن ثقبائل العرب وازرع سام يتضي بينهم تراهم يلجأون دواماً الى اخذ ثارهم بيدهم وهذا هو السبب الاكبر ما يتبع بينهم من العدوان  
 وكان بين عرب الفضل وعرب بني صخر تارات قديمة واتفق ان عرب بني صخر انسوا الضعف من عرب الفضل او حرصهم معرض علي غزوهم لكي يضعف الفريقان معاً ففتنوا الغارة عليهم وبلغ الامير عمران بني صخر زاحفون عليه فجمع رجاله في سفح جبل عجلون وكان هناك سهل فسيح يتدئ بوادٍ عند اسفل الجبل تم ينتشر شمالاً وجنوباً وشرقاً وكانوا نحو ثلاثة آلاف فارس وترك النساء والاولاد في الجبل ومعهم نحو الفين من الرجال لحمايتهم واراد ابنا الامير عباس ان يخرجامعه للقتال فمنعها واوصى امها ان لا تدعها يخرجان من مضرها واكد لها وللاميرة سلى انه يعود فائزاً مساءً ذلك اليوم لان رجال بني صخر لا يقاسون برجاله

وخرج هو في مقدمة جيشه وكان رجاله مسلحين بالسيوف والرماح ومعهم نحو مئتي نديفة من البنادق القديمة ذات الرباد فلما توسطوا السهل راوه موج بفرسان العدو فتقدم نارس منهم براية بيضاء ومعه رسالة الى الامير عمر مفادها ان يسلم للامير حسان امير بني صخر لرجلين اللذين قتل ابن خالته ويرد له احمال ان التي نهبها رجاله من قافلة كان فيها عشرون جملاً لبني صخر على كل حمل منها نصف قنطار من البن ويسلم له الامير عباساً واهله ليحميهم عنده لان بني صخر اولي حمايتهم من عرب الفضل

فقرأ الامير عمر الرسالة وقال للرسول قل لمولاك ان الرحابن اللذين قتل ابن خالته انما تلاة بتار قديم لها عنده وان العرب الذين نهبوا التافلة لم يكونوا كلهم من عرب الفضل ولا ثم فعلوا ذلك بامرهم ولا رأى ان الذي يتال اهم نبوه وان الامير عباساً رحمة الله عليه لها الى حماء واوصاه زوجته راوادم قبل وفاته وهو وحده حامي الدمار في تلك الديار عرب صخر معتدون عليها واوطنهم بيعة في البلقاء وهو يطلب منهم ان ينكصوا على عتابهم ويعودوا اليها فيعود عنهم ولا اشبع غربان الجو ووحوش البر من لحومهم

فرجع الرسول واخبر مولاة بما سمع فالتفت الى الذين حولته واخبرهم بمفاد الحواب اترعوا رماحهم وقالوا له مرنا بالهجوم عليهم فال هلموا يا شجيمان العرب وامتل سيفه وهم المجوم معهم فمنعه رجاله واقسموا عليه ان لا يهجم ما لم يبرز له الامير عمر لكن رجاله وموا الاسنة واطلقوا الاعنة فالتقى الجيستان كأنهما جبلان ودار الطعن والضرب وكانت شمس قد علت عن الافق وارسلت اشعتها في وجوه عرب الفضل فكادت تعمي ابصارهم

وخلصت كتيبة من بني حورودت من بني حورودت من بني حورودت  
 جالهم . وحاربهم في سنة ١٠٠٠ م . وبمقتضى ما  
 للاخير حاربهم في سنة ١٠٠٠ م . وبمقتضى ما  
 فرسانهم يستصحبونهم في كل سنة . وبمقتضى ما  
 واتخذوا فيهم لادابهم صلواتهم . وبمقتضى ما  
 الشمس كادت تعمي ارضهم من كل جانب . وبمقتضى ما  
 فرسان بني حورودت فيهم . وبمقتضى ما  
 وفسروا في اقصيتهم وصعد فريق منهم من جبلهم  
 من فيها وفي جبلتهم امة والاميرة هند وولادها . وبمقتضى ما  
 جنة البلاء

ولما بلغوا السهول اتفح حورودت فرسان بني حورودت  
 رجالهم يلم شعوبهم ويخيبهم ليعادوا الكرة بجمع نخواتهم  
 اسرامهم والاميرة هند وولادها فصار الخيبة في عيبيد ضالمة و  
 هذا يومكم يا عرب افضل النار ولا اله الا من منكم ابو حورودت  
 بين العرب الى آخر الدهر وقد ماتت الشمس الآن ولا يبقى لها  
 والطلعان . ثم اتسار يديهم الى الاتداء وهجم عليهم هجمة منكرة  
 ويسرة حتى دنا من الفرس الذي عليه امة وكاد ينقضون من سر  
 فسقط واجتمع رجاله حوله يدافعون عنه فسمع الخارسان امة  
 وابعدا عنه . ولم يكن الا دقائق قليلة حتى نادى في صهوة حورودت  
 وكانوا قد اطابوا عليه من كل ناحية وسدوا في وجهه سانس امة  
 بيعت فيها الارواح بيع السباح ونزل الاخير عمره . وبمقتضى ما  
 اسود يحمي ظهره لانه لم يستطع استرجاع الاسرى مع كل ما  
 استبساله فزادت نخوتهم واستنزلوا كلهم ولكن اجتمع عليهم  
 الاتداء ومضت ساعة لم تر تلك البطاح مثلها من عيد الخليلية  
 ان الكثرة غلبت الشجاعة وان شمل رجاله قد تمزق فغزه ان يرجع  
 صخر بهم تلك الليلة



## الفصل التاسع والعشرون

## خيبة الامل

وصل السرهنري الى صيداء وبات عند قنصل الانكليز واخبره انه ذاهب الى حاصبيا فقال له القنصل ان حاصبيا والنرى المجاورة لها امت رمادا وقتل اكثر رجالها ووصل الفارون من النساء والحجائز الى هنا وهم في حالة يرثى لها . فطلب منه السرهنري ان يريه بعضهم فارسل لقنصل قواسا من قواستد فجاءه بشيخ طاعن في السن فقص عليه ما جرى من اول الفتة الى ان جمع الرجال في السراي وذبحوا ذبح النعم . فسأله السرهنري عن الامراء التسهايين فقال له انهم قتلوا ايضا فسأله عن الامير عباس فقال له انه رحل الى عرب الفضل في جبل بلون منذ عشرين يوما او اكثر

وطلب السرهنري من القنصل ان يسير به الى حيث يقيم المهاجرون من اهالي حاصبيا القرى المجاورة لها لكي يراهم فسار به الى انطانت التي كانوا مقيمين فيها فقابلته النساء بالبكاء العويل ورأى مناظر تفتت الاكباد فتداول مع القنصل في امرهم ثم مضى وقابل المتسلم سمعة من الكلام امره واستأجر سفينة كبيرة ليُرسل بها المهاجرون الى بيروت وارسل معهم قواس الذي اتى معه وكتب الى الكولونل روز يخبره بما سمع ويستأذنه في السفر الى جبل بلون وارسل الكتاب مع رسول وقام بطوف في صيداء ليرى مبانيها القديمة فرأى حان لافرنج وقلعة البحر وصعد الى قلعة الملك لويس ورأى ابراجها وما فيها من المدافع المصرية الباقية بها من عهد ابراهيم باشا فاعجبه منظرها وخرج الى خارج المدينة من عند الميناء القديم ورأى دكة الخلازين البحرية التي كان الصيدونيون يستخرجون الارجوان منها . وركب في اليوم التالي ذهب الى ضواحي المدينة وزار بيت لادي استيرستانهوب واستصى اخبارها من بعض الذين رافقوها وعاد عند الظهر الى المدينة فوجد الجواب من الكولونل روز ينصح له فيه ان لا يوغل البلاد ما دامت الفتة قائمة قاعدة ويؤكد له ان الامير عباسا فعل عين الصواب برحيله من عرب الفضل ولا بد ما ينزل هناك على الرحب والسعة لان الامير عمر اميرهم من اكرم امراء عرب ووسائل الراحة والرفاهة متوفرة لديه . قال الكولونل وتذرتة منذ سنتين واقمت نده ثلاثة ايام فرحب بي واكرهني غاية الاكرام ووجدت عنده كل وسائل الراحة التي يمكن ان توجد خارج المدن ولو كنت اعلم ان الوصول اليه سهل لاشرت عليك بالذهاب اليه من برترد اما والاحوال كما ترى فليس من الحكمة ان تحاطر بنفسك لاسيما وان خصومنا قد

ينسبون ذهابك لغاية سياسية ولا يفتي عليّ استعمل بائث وكن ما كل  
 والصبر مرثاً ولكن ثمرته حلوة كما يقول المثل الترنسوي . وما دام الاميرة  
 الفضل فلا خوف عليهم . وبعد شهر او شهرين نرى كيف نتصرف هذه  
 من الحال . ولقد اسفت جداً لما اصاب هؤلاء الساكنين على ما وصفت  
 تصل السفينة التي ارسلتهم بها اليوم او غداً فيجدوا هنا بعض الراحة و  
 لما قرأ السر هنري هذا الكتاب رأى ان رجوعه الى بيروت  
 الحاضرة فاستدعى الشيخ الذي رآه قبلاً وكان لا يزال باقياً في صيدا .  
 عرب الفضل ومنازلهم وعدد رجالهم واوصاف اميرهم فتص عليه الشيخ  
 انهم بطون كثيرة تنزل جبل عجلون والسهول المجاورة فتقيم في الجبل  
 وهم نحو ستة الاف بيت . واذا خرج اميرهم الامير عمر الفاعور لغزو  
 فارس وقد حاولت الدولة ادخالهم في طاعتها مراراً فاخفقت كنهم لا  
 ما يظهر بل يكرمون رجالها ويهادون الولاة بالمديا ويتصدّم التجار وي  
 والصوف والغنم والجمال والخيول اذا لم تكن كريمة وقد يبيعون الفراء  
 او اكثر ويشترون من التجار الاقمشة المختلفة والتبغ والرز والبن وال  
 النحاسية والحلي والاسلحة ويقوم الى جنوبيهم بتو صخر وهم لا يتلون عن  
 ذهبت اليهم في تجارة منذ عشر سنوات وكان معي ولداي  
 ولما نطق بهذه الكلمة اغرورقت عيناه بالدموع والتي رأسه على ع  
 الصغير ثم كفكف دموعه وعاد الى الحديث فقال نعم ذهبت مع ولدي  
 بين عرب الفضل وبني صخر لكن العدول من الطرفين اجتمعوا يوم وصول  
 فاستبشر العرب بنا واشتروا كل ما معنا من البضائع واعطونا عملاً بدلاً  
 دوابنا ومعنا قطعان كبيرة من الغنم رزق الله على تلك الايام ياليتني من  
 فسأله السر هنري عن حال المعيشة في بيت امير عرب الفضل . ف  
 انما كانوا وقد ضافنا امير عرب الفضل في بيته فاكلنا وشربنا مع رجاله  
 يأكلون وخدمهم وطعامهم الرزاق والرز المنقلب والخرفان والامير متأثق  
 له الحجال ويطبخون له احياناً ماكل تركية لان عنده الجوارى السود  
 الماكل التركية وعمل الحلويات وهم يكثرون من اكل الحلوى وعندهم  
 من الجبل ويكون في شقوق الصخور العالية . وقد اكلت منه وهو اطيب

فقال له السر هنري وكيف ينسون هل عندهم فرش مثلنا  
 فقال نعم عندهم فرش كبيرة محشوة بالصوف الناعم وكثيراً ما يزورهم كبار رجال الحكومة  
 و ينامون عندهم والهواء هناك طيب منعش فينام الانسان ساعنين كأنه نام الليل كله فان  
 كنت عازماً على الذهاب الى هناك فاذهب ولا تحف فان كثيرين من السياح قد ذهبوا الى  
 هناك وانا ذهبت مع جماعة من الانكليز الى مصر بطريق الرومرنا على عرب الفضل وعلى كل  
 العربان الذين في الطريق من هنا الى عريش مصر . نعم ان السياح كانوا ينامون في خيامهم  
 ولكن امراء العرب كانوا يدعونهم للاكل عندهم فيجدون ما يسرهم  
 فاطمان بال السر هنري من هذا الحديث وسلم امره لله وصرف الشيخ بعد ان ناوله  
 صرة من النقود وقام في اليوم التالي وعاد راجعاً الى بيروت

### الفصل الثلاثون

#### البحث والتحقيق

لم يكد السر هنري يصل الى بيروت حتى وصل اليها فواد باتسا الصدر الاعظم جاء  
 ليصلح الحال من اقرب الطرق خوفاً من مداخلة اوربا وقد فوض اليه ان يفعل ما يرى فعله  
 لازماً لاطمئنان الخواطر وارجاع الامن الى البلاد فقبض على والي بيروت والقائه في السجن  
 وسجن معه بعض رجال الحكومة لكنه لم يفعل ذلك الا بعد ان جاءه كتاب قوي الالهيحة  
 من اميرال الاسطول الانكليزي الذي كان راسياً تجاه بيروت وصف له فيه الفظائع التي  
 جرت وابان له ان الامم الاوربية لا تستطيع السكوت عنها وانه اذا لم تبادر الدولة الى  
 الاقتصاص من المرتكبين فالدول الاوربية متفقة على ان تتولى هي بنفسها الاقتصاص منهم  
 وارجاع الامن الى نصابه . و اشار في هذا الكتاب الى ان اللوم الاكبر واقع على كبار  
 رجال الحكومة الذين امروا بهذه الفظائع وتولوا اجراءها

فوقع هذا الكتاب وقعاً شديداً في نفس الوزير وصعد الى دمشق وقبض على واليها  
 وامر بقتله وقتل معه المأثور الذي كان في حاصبياً وثلاثة من ضباطه و مئة وسبعة عشر  
 جندياً ونحو خمسين او ستين من الاهالي . وكان الذين قُتلوا من دمشق وضواحيها نحو  
 ستة آلاف نفس

وسئل احد وجوه دمشق ليكتب محضراً يصف فيه ما جرى له وكان قد نجا من  
 المذبحة فكتب ما خلاصته

لما فتت الفتنة في لبنان والبلاد المجاورة نه انضطرت الافكار  
 الخبر بالاستيلاء على زحمة كان فرح عظيم وقرينت لاصواق الاما  
 كثيرون الى دمشق من البلاد المجاورة لها ومثلات بهم كدس  
 معقودة بان الامير عبد القادر الخزازي يستطيع مع الفتنة وقد نذر  
 فاطمات الحواطر وعاد الناس الى اعمالهم في الساع والثامن من شهر  
 استبيحت الارواح ودخل الاستقياء البيوت والاديرة والكنائس وبقية  
 والاعمي من السكان ومن اللاجئين اليهم من تنزلوا الجذومين  
 للتداوي فيها وحرقوا مكاينهم

وكما فعل هؤلاء الاستقياء المنكرات فعل الفضلاء الصالحا  
 والشريف اسعد حمزة والشيخ سليم العطار والشيخ عمر العابد وامامه  
 برجالهم ينقذون الناس ويمنعون الاعنداء عليهم نعمدت الفتنة في اليه  
 اليوم الثالث ودامت السدة الى ان وصل الى دمشق وال جديد واه  
 وانا كنت نائما في بيتي فابقظوني صباح الاثنين في ٩ يوليو وا  
 في المدينة فخرجت الى باب داري لاتحقق الخبر فرأيت الناس يتراكة  
 قدوم قواس من قنصلانو الانكليز لاني ناع لها وبعد قليل حضر قوا  
 عبد القادر اطلب منه رجالا يوصلوني اليه فرجع القواس وحده مع  
 اعطاه ستة رجال ولكن لم يكنهم الوصول اليه لتسدة الازدحام وا  
 فانتظرت املا ان يتسلحوا ويعودوا اليه وبينما انا جالس في انتظار  
 داري وكسروه بالبلطات ودخلوا الدار الخارجية وجعلوا يطلتون الى  
 فخرجت من باب صغير خارجي ومعني ابني وعمره تسع سنوات واند  
 والقواس واخذت معي مبلغا من النقود لاستعين به بدل السلاح وك  
 من الثائرين ورأيتهم هاجمين علي ارميهم بقبضة من النقود فيلتهبون  
 الى زقاق ضيق ظننت اني لا اجد فيه احدا فاصل منه الى دار الا  
 خاب ظني وهجم علي رجاله ليتلوني وضرب واحد منهم ابنتي ببلطة  
 واطلق آخر علي الرصاص مرتين فاخطاني وبادرني واحد ببلطة  
 واصبت بضربات كثيرة في جنبي الايمن ولم يعد الذين حولي يستطيعو  
 لثلا يصيب بعضهم بعضا فقلت لهم اني ذاهب لاقابل حضرة البك محاف

مصلحة كبيرة . فقال بعضهم هلم نأخذهُ الى البك فاخذوني اليه بعد ما سلبوا مني ساعتني وكل ما معي من النقود . وبينما نحن سائرون لحقنا درويش بعمامة خضراء وشعر مسدول ويده عصا طويلة في رأسها منجل كبيرة وكان يمدّها من فوق رؤوس الرجال ليحزبها رأسي . حتى اذا وصلت الى بيت المحافظ اخذني بيده وصرف الناس عني ووضعني في بيت احد اتباعه مع القواس وكان قد صار العصر وليس في البيت الا امرأة عجوز والتفت فلم ارّ ولدي ولا كنت اعلم ماذا جرى لزوجتي وطفلها الرضيع ووالدتها وخالتها وكنت قد فارقتهم في البيت اما ولداي الكيران فكان اولهما عند قنصل الانكليز والثاني في مدرسة الروم البطريركية ولم اكن اعلم ايضاً ماذا جرى لهما . واصعدوني الى غرفة عالية (قصر) تطل على الشارع فرأيت منها المحافظ اتيا الى بيته باناس كثيرين وعيالهم فاستغربت كيف يحمي هؤلاء في بيته ولا يحميني انا فيه بل يضعني في بيت احد اتباعه وترجع عندي انه يقصد الايقاع لي ليلاً ولا يريد ان يقتلني في بيته امام الجمهور فاخبرت القواس بذلك وقلت له الاجدر بك ان تجوب بنفسك . فقال وانت ماذا تفعل فقلت له اني انتظر حتى يخيم الليل وادخل بيت المحافظ فلا اظن انه يتجاسر على قتلي في بيته وبيته مملوء بالناس . فقال هذا هو الصواب ولكني لا افارقك الا بعد ان تصل الى بيت المحافظ وحينئذ اذهب واخبر الامير عبد القادر . فاستحسن رأيه وانتظرنا الى ان خيم الظلام وحينئذ رأينا سبعة رجال جاؤوا وقرعوا الباب بعنف ففتحت لهم العجوز فسألوها هل فلان هنا فقالت نعم هو في القصر (الغرفة العليا) . فقلت دنت الساعة واشرت الى القواس ليحجوب نفسه ويخبر عما حل بي . وبينما انا آكله بذلك صرخ واحد من الرجال قائلاً انزل يا فلان فانا صديقك السيد محمد السوطري جئت برجال الامير عبد القادر لكي اتذك فلا تحسّ بأساً فنزلت اليه والبسوني برنسا كالمغاربة ومشيت بينهم ومر بنا ندوس على القتلى في الازقة حتى وصلنا الى بيت الامير وكان مزدحماً باللاجئين اليه لان الامير بقي ثمانية ايام مسلحاً يطوف في التوارع ويقذف الناس من القتل . ولما رأى السيد محمد السوطري ان بيت الامير مزدحم الى هذا الحد طلب منه ان يسمح له باخذي الى بيته وهو قريب من بيت الامير فسمح له ومضى بي الى بيته وسألني عن عائلتي فقلت له ان ابني الكبير في قنصلاتو الانكليز والثاني في مدرسة الروم وكان معي ولدان ففرّقوا بي وبينهما ولا اعلم ماذا جرى لهما وقد تركت زوجتي وطفلها في البيت . فقال اما ابنك الكبير فلا خوف عليه لانه لم يذن احد من قنصلاتو الانكليز واما الباقون فانا امضي الآن افتش عنهم وهم لا يعرفونني فقد يمتنعون عن المجيء معي فدع القواس يذهب برفقتي لاطمئنانهم

وهي دوولنا من فوجده رحمتي و راد ي كانه  
 وسألت السيد محمد كيب روف في في ارب - في كات في  
 بنات الريد من ان زمر صيب من الحكومه - او لا -  
 الصوري لمع واد محله من لاسا - مع - من وقت حمار  
 الباب شاف حينئذ من يتي و د واحد حرد - حدي ووجه  
 فتوجه اليه وطاي من كاري يرجع و - يا رسد -  
 استلحين ليظلموني من احد - مذهب هو - و عبي - وتلدو -  
 احيدو مع به ليذف من مكاني

وفي تلك ليلة ررني ستررت منس لانك و صمد من  
 اثاني فمضي بلانة ايه و انفسه في حاروا و احد بين حتى  
 ثم اتي رجل تركي اى قبض الاكثير و حرد - من روح  
 روكت قد اسكت السترو من امرس لا كاري في  
 واحفته في يتها - من ارسل المنس رجلا من مارة و منه  
 و تبت تمهراً في بيت السيد محمد اسوطري حتى - بيت من  
 محمود امدي حمرة الى دارو ماتتات جيا لان لا تير حرو و  
 و بقيت في بيت محمود امدي الى ان حمر فود -  
 وعادني السيد محمد الامين الشاعر المشهور مني بلان -  
 الذي تراه - قال سكت د اؤك و سيات بسؤك و هدت بيوك كبر  
 عنكم فان اهالي دمتق الدين فعنواكم هذه اهل تشو واد -  
 الكعبة المشرفة

الفصل الحادي والثلاثون

مؤتمر باريس

ما هذا الحر الذي يزهق النفوس حقاً ان باريس لا تطق في  
 المتكلم مندوب روسيا والمحاطب مندوب انكلترا  
 فقال مندوب انكلترا - والحر عندنا شديد ايضاً على خلاف  
 الحرارة التسعين امس

مندوب روسيا — التسعين ما هذا وكيف تحسون درجات الحرارة  
مندوب انكلترا — سيت انكم لا تحسون الدرجات مثلنا . ان التسعين مهران فارميت  
نقابل نحو ٣٢ ميران ستعداد ولكمي اشعر رطوبة هما لا اشعرهما عذنا وعلى كل حال الحر  
شديد هما ولا اطمئ شديداً في بطرس سرح  
كلاً ولكم يتتد احياناً كثيرة في فصل الصيف . الظاهر ان فرسا تريد ان تفتح  
المسألة الترقية من جديد

مندوب انكلترا — هل انتم من رأيها  
مندوب روسيا — انتم تعلمون انه لا يمكن ان نكون من رأيها . ومولاي الامراطور  
مستاء جداً مما حدث في سورية ولكم يقول انه ان كان الحق في المداحلة لدولة واحدة  
فذلك الحق هو لروسيا لا لغيرها وقد وصلت نارحة من بوارحا الى مدينة بيروت في الوقت  
اللازم فمعت حدود مذبحة فيها

مندوب انكلترا — نعم لعدا ذلك ومولاي الملكة شكرت لسفيركم لما لعدا الحر لاهما  
مستاءة جداً من هذه الحوادث وانتم مصبون في قولكم انه لا يحسن بدولة واحدة ان تنفرد  
بالمداحلة اي بارسال جمودها الى تلك البلاد ولكن هل ترون من الحكمة ان ترسل كل  
دولة من الدول المتحاة فرقة من جمودها

فكر المندوب الروسي هيبه ونظر في وجه المندوب الانكليزي لعله يقرأ فيه ما يصحتم  
قال له كلاً ولكن لماذا نفضل فرسا على غيرها اذا فصلنا ان تنفرد دولة واحدة بارسال جمودها  
فقال المندوب الانكليزي نحن لا فرق عذنا فاذا اردتم فمخ برسل جمودنا او انتم ترسلون  
جمودكم او ترسل جمود ممسوية

فلم يخب المندوب الروسي على هذا الكلام بل بقي صاماً يفكر في ارسال الجمود الروسية  
اذا امكن ولكم يحسب ذلك صرناً من المحال

وتكامل الاعضاء حيثند ودارت المداكره بعد ان تليت عليهم تقارير القناصل كاهم  
وكان حاصراً في ذلك المؤتمر معتمد ريطايا ومعتمد روسيا ومعتمد تركيا ومعتمد فرسا ومعتمد  
العمسا ومعتمد روسيا ولم يسع مندوب تركيا ان يبي شيئاً مما ذكره التناصل

ولعد تحت طول افرت الاكترية على انه لا بد من ارسال جمود اورية لارحاع  
الامن الى البلاد وترعت فرسا بارسال ستة آلاف من جمودها وكانوا مستعدن لاسرع عد  
اول اشارة فتكرها المندوبون على هذه المروءة . وقال مندوب انكلترا يجب ان يقرر ايضاً

ان هذه الجنود ذميمة باسمهم وزيادتهم لا يرفعون رتبهم ولا يرفعون رتبهم من هذه السياسة الرشيدة وقد لا يرفعون رتبهم هو شرفهم من هذه الجنود الفرنسي لا استبول بذلك وقد هو مرشح ووديع الى ارسال جنودهم بما هو الشفعة وحسن وليس بالجنود ترسل جنودنا الى سورية

فقال المدوب الاكبري وبفهمه يمدن هذه جنود د توطيد الامن فتى توطيد تعود مشكورة في ذهبت مشكورة وورقات حينئذ وكان قد اوجس ثمرًا لما طلب مندوب الكابري ان يكون كلها قائلًا في نفسه ان هذا يدل على انه قد ورد بها كذا سياتي مع الجنود تخرج من سورية حاد يتوطد الامن فيها مرتبًا عنه وو المدوبين ولم يقل مندوب فرنسا شيئًا لان كلمة توطيد الامن والكثير والمطل الطويل

وتذاكر اعضاء المؤتمر في امور شتى تتعلق بهذا الموضوع وصاد عقدت بعد حرب القرم سنة ١٨٥٦ والخواعي مندوب الباب اع حيث المساواة بين كل اصناف الرعية فقال لهم ان الباب العربي بتلك المعاهدة وسبقي باذلاً اقصى الجيد لقيامها

وختم المؤتمر وكان ابتداء اجتهاده في الثالث من أغسطس من الفرنسية الى بيروت في السادس عشر منه اي بعد وصول فواد في حرش بيروت نصبت خيامها هناك وانتظرت الايام وحلها في كل مكان واطمأنت القلوب وراجت الاعيان لاسباب وان اموال كانت تندفق لاغاثة المنكوبين . وجعل كثيرون منهم يعيشون وتصرف الجنود تصرف الكرام فكانوا يدفعون كل ما يطلب منهم طعامهم حتى ان الفقراء الذين كانوا لا يأكلون الا الخبز اخافت و الا ادم صاروا يأكلون اللحم الغريص مما يعطيهم اياه الجنود واك القديمة التي اعطوهم اياها وظهر كأن البلاد انتعشت بعد ما خيم على



## الفصل الثاني والثلاثون

## الحية والقتل

رجع الامير عمر الى مشاربه كاسف البال يكاد يستعل غيظاً وكنت الشمس قد آذ بالمغيب فترجّل عن جواده واجتمع حوله شيوخ قبيلته وكان قد اصيب بجرح في ذر اليسرى فاقى المتطبب وغسل الجرح بالماء وحى اداة من الحديد وكمواه بها كأنه يميكرروبات الفساد ورش على الجرح رماد خرقة محروقة وربطه والاير رابط الجاس لا يذ ولا يتكلم . ثم سأل الذين حوله عن عدد القتلى فقالوا له زهاء مئتين وقد ابلينا بلاءاً ح فقتلنا اكثر من ذلك . فامر ان يرسل من يهتم بحمل الجرحى ودفن القتلى وان يستر الرجال ساعتين من الزمان ثم ينهضوا ويلحقوا بالعدو حيث بيت تلك الليلة

فقال له رجل شيخ من رجاله ليس تبيبتهم من صواب الرأي لان الليل حالك الظلام و نصيب احداً من اولاد الامير عباس . والرأي عندي ان ترسل نستجد عرب عنزه فانهم استنجد مرتين في حياة المرحوم والدك فانجدناهم ونضرب موعداً نهجم فيه على بني صخر من جهتين مختلفتين فإما ان يشوبوا الى رشدهم ويردوا الأسرى ويصالحونا واما ان نخرب ديارهم ونحو آثارهم فقال رجل آخر وهذا ليس من صواب الرأي لان عرب عنزه ارتحلوا الى جيات الجز او هم على اهبة الارتحال ورأيي ان ترسل الى بني صخر تعرض عليهم اقتداء الاسرى ثم ترقّ القرص للاخذ بالثار . وقال ثالث ان الامير حسناً ان قبل باقتداء اسرانا لا يقبل بتساق الاميرة هند واولادها ولا بدءاً ما يكون قد كتب كتابه الآن على الاميرة سلمى على باري عاد ولما سمع الامير عمر هذا الكلام صار الضياء في عينيه ظلاماً فهض واقفاً وقال من مة احوالهم يسير ورأيي ويحبي ظهري وعليّ انا وحدي بيني صخر كلهم

ولكنه كان خائر القوى لكثرة ما عرف من دمه فارتجفت ركبته وكاد يغى سليمه فذلة الطبيب تناول الآن شيئاً من الطعام حتى تسترد قوتك وبعد ذلك تنظر في الامر وشعره هو بخوران قوته فانتكأ على عمود الخيمة واطرق وهو يكاد يتميز غيظاً من نفسه وه سوء طالعه لانه لو لم يعثر جواده لردّ الاسرى وقهر الاعداء ولولا اشعة الشمس التي اعمه ابصار رجاله لما دارت الدائرة عليهم فكانّ التقادير كلها كانت معادة له . فالتفت الى الذين حوله وكادت دموع النياط تنفجر من عييه وقال لهم لا بدءاً لنا من الراحة على كحال فعلقوا لحيلكم واستريحوا قليلاً

ثم مر حدها...  
 جمع الكثرة...  
 عن مسند...  
 تلك الاتساع...  
 وخيل له...  
 ما كذا فعل العرب...  
 ان ايت...  
 منه وجعلت الاخيلة...  
 رجالة ويجرضهم...  
 لحظة يعاوده البحران

وتمع خدمة هذينة...  
 وسناه...  
 قليلاً من اللبن...  
 هند واولادها...  
 كانوا من كراه...  
 الامير حسان...  
 الاساليب...  
 اسلم عاقبة...  
 الا انه يفضل...  
 فعل ما اريد...  
 استدعى رجالة...  
 فاجعوا على...  
 عنده إما رغبة...  
 وبما هم في...  
 اترك متي...  
 مخطوبة لامي...  
 فكان لكلامها...  
 وقام عظيم...  
 فاجلسوها...  
 فسألوها...  
 قصة الامير

الانكليزي فأكدت لهم ان في دار قنصل الانكليز في بيروت اميراً انكليزياً من اولاد عم ملكة الانكليز وهو حطيب الاميرة سلى وقد سافر ابوها بها على غير علمه وانه لا بد وان يكون آتياً الآن بالعساكر لتفتيش عنها . فطيبوا خاطرها وجعلوا يتداولون في ايصال هذا الخبر الى الامير حسان

اما الامير عمر فصمت ولم يعد يتكلم لانه رأى انه ان كان ذلك ينجيه من خصم يكرهه هو وتكرهه الاميرة سلى ايضاً فهو يوقعه في خصم آخر تحبه الاميرة سلى ولا يمكن نجاتها منه فرأى ان الآمال التي احيهاها في فؤاده امامي فارغة واضعات احلام فلم يعرف كيف يتقي النبال . فثقل وحذلان واسر وذل . ثم هو مضطر ان يحمل العار لينقذ فتاة تكون لغيره ولا يعود يراها في حياته . فوجم ولم يعد يتكلم وظن رجاله انه كان يفكر في طريقة لانتقاذ الاسرى من غير فكك فصمتوا هم ايضاً ثم نظروا اليه يستوضحونه رأيه فقال وهو لا يدري ما يقول ارسلوا اعرضوا عليه الفكك وخذوا من مالي خمس مئة جمل او أكثر حسب دواعي الحال واخبروه ان الاميرة سلى مخطوبة لامير انكليزي وانه لا بد وان يكون آتياً الآن بعساكر الانكليز ومدافعهم وهو يعلم ما حل به وبرجاله يوم خربوا عكاء . وان فسح الله لي في الاجل اخذت ثاري بيدي والآن تركت تاري لكم لتأخذوه بعدي وقد عاودتني الحمى الآن ولا ادري ماذا اقول . ثم اتكأ على ذراعيه واسد رأسه الى كتفيه . وقام رجاله وتساوروا ساعة من الزمان ثم ارسلوا ثلاثة منهم ومعهم رايات بيضاء ليعرضوا الفكك على الامير حسان ويخبروه بقصة الامير الانكليزي

وكان قد وصل الى التبيلة شاعر دمشقي فطم ابياتاً في واقعة الحال واستدعا الامير عمر

يعز به بها عما حل به ومنها قوله

تعرّ فان الصبر بالحر اجمل	وليس على ريب الزمان معول
فلو كان يغني ان يرى المرء جازعاً	لحادثة او كان يغني التذلل
اذاً فالنعري عند كل مصيبة	ونابذة بالحر اولى واحمل
فكيف وكلّ ليس يعدو حماته	وما لامرء عما قصى الله مرحل
فان تكن الايام فينا تبدلت	نؤوساً بعسى والحوادث تفعل
فما ليت منا قنائة صليبة	ولا ذالمتا للذي ليس يجمل
ولكن رحلتها نفوساً كريمة	تحمّل ما لا تستطيع فتحمل

فشكره الامير وامر له بصلة سنينة وفرس كريم

سبل الامير حسن وولاته

.....

سبل الامير حسن وولاته لا يسلفون به من يمشي به في رحوة من  
 اخذوا تدر رحالهم من عرب مضرب و بكاهه به امره و ترويه من قافلته  
 ازوانا كبري، انه من ترويه مني رحل و كبر به امره و ترويه و حيونه و استقوا  
 ليغا كبر من مدينة و حدود في حوزة و ترويه و كبر الاميرى مواصوا السير  
 لسرى الى ان اعدوا مرجح كبره عن مسير عرب حسن و ترويه في حوزة و استراحوا  
 بلا تم قلموا في الصبح و ساروا و نيك الالة يوم و ترويه في مقلبه في سبت و الامير  
 سان لا يصدق ما يرى بل يحسب انه في حوزة و كبرت حوزة قد سمعت من قبي في الخلة  
 رجت النساء لقتائهم المذوف و ابراهم و الالة حوسية و ذمحت سبت في اليوم التالي  
 ولت الولايم و ادبرت الجهور و اول الامير حسن لامية هند و لامية سبت و م لامية  
 مضرب كبير قرب مضرب زوجها و اقام جاربتين على حوزة سبت و اولي لامية هند  
 مضرب آخر و كان في بني صغرتاعس من مشوة حسن و ترويه لامية فصيحة يدحه بها  
 بذكر مناقبه الحسان و بلاهه بالاسداء و يحدوه من التروي في سبتهم و ترويه فيها

تجاف عن الاعداء بقاء فوما كذبت و تخرج باب هلاص  
 ولا تير منه كل عود تحوز و ن لاردي يدشون مع لدهر  
 اذا انت اذنت النبيه من العدى و متك الميدي عن يد احمول كبر  
 و هبك اتقيت السهم من حيث تفتي فكيف تن ريبك من حيث لا تسري

ففظن الامير حسن الى مراده و ظن به السوء و به يهله لشيء من امر احد امواله ان  
 خذه الى خيمته و يحفظ به الى ان ينظر في امره و سب من معتته لادن الى ان سلا  
 أسه بخارها فذهبت نعتله و قام قاصدا مضرب الاميرة هند فالتقت به و وجته و به يحف  
 ليها امره فقالت له الى اين يا سيء الفعال اتريد ان تترك ما عارا بين قبائل العرب و وامسكت  
 : و ردتة من حيث اتى و كان يخشى صوتها و قد طلق نساء كثيرات قبلها اما هي فملكته و كان  
 بلس امامها كالعبد التليل فعاد الى مضربه سكران بمخمرتين خمرة الظفر و خمرة العنب ثجيل  
 انه راكب على جواده و الفرسان لتسابق بين يديه فجعل يضرب يمينه و يسرة كأنه  
 بتدل الاقران و يصبح مرة بعد اخرى ثم يضحك حتى يستلقي على ظهره و يقوم و يسير مهرولا

طالباً الخروج من المضرب فيسك به عبدة ويرده الى مكانه واذا اكثر من الجلبة والعريضة  
انت زوجته اليه وتمهدته فيضحك لها اولاً ويحاول القبض عليها ثم يقول لها انا الفارس  
الموار انا قاهر عرب الفضل هه هه من انت حتى ثقني في طريقي تعالي يا حبيبي هه هه الـ  
تأتين اذهبي عني يا نكاح اغربي من وحيي لا بد ما اطلقك واحذ الاميرة هند لا لال  
الاميرة سلى هه هه ابن الاميرة سلى اذهب يا لعين واتني بها اذهب والـ قطعت رأسك  
بهذا السيف . تم يلوح بيده كمن يستل سيفاً من غمده  
ولم يهتم الخدم بسكرو لانهم كانوا معتادين ان يروه سكران اما زوجته ثقافت ان يسمع  
احد من الاميرات الاسيرات صوته وحاولت وضعه في فراشه فدفعها عنه واراد الخروج لكن  
السكران قد اضعفه فتغلبت عليه هي والعبء واجلساه على فراشه ولم يعد يستطيع القيام  
لكنه بقي يعربد ويهذي ساعة من الزمان ثم جاشت نفسه فاستفرغ بعض ما في معدته  
وانطرح في فراشه كاليت الى ان اصبح الصباح

### الفصل الرابع والثلاثون

#### التزلف والنفور

الاميرة هند وابنتها وولداها في خيمة سوداء من الشعر مرفوعة العماد مبطنّة بتشق الحرير  
الدمشقي المخطط بالاصفر والازرق وهي جالسة على اريكة متكئة على مسند عابسة الوجه  
مقطبة الجبين والسيكارة في يدها والامير حسان واقف امامها يكلمها بصوت منخفض ويسترق  
اللحظ الى الاميرة سلى وهي جالسة الى جانب امها مستندة الى مسند آخر لكنها صامئة لا  
تكلم وحاول الامير حسان جوده لكي يصلح منطقه حتى يكون بلعة مفهومة لدى الاميرة هند  
فقال لقد ابنت لحضرتك اننا لم نقصدك انت واولادك بسوء على الاطلاق ولم يكن لنا غرض  
الا عرب الفصل لاحذ النار وكشف العار واتم آل شهاب من العرب الكرام الذين يعرفون  
عادات القبائل ولا يرضون لما بمذلة اذا امكنا ان يرفعها عا

الاميرة هند - انا لا اجادلك في ذلك ولا اقول لك ان لا تأخذ شارك من اعدائك  
ولكن كان في امكانك ان تحبرنا حتى نرحل عن عرب الفضل او ان تخدر رجالك لكي لا يمسونا  
بكرهه ولا يحملوا اليك بنات شهاب سبايا كما حملونا ما هذا ظني بك يا امير ولا تستطيع ان  
تعذر بانك لم تكن تعلم اننا نازلون على الامير عمر لانني ارى انكم تعملون كل شيء في هذه البلاد  
فقال لا انكر عليك انني كنت عالماً بنزولكم على عرب الفضل وكنت احسدم على هذا



المصيبة ما هذه البليّة اين اهلي الآن اين ا-وتي واحواتي واولاد عمي واولاد خالي  
وقالت له الاميرة سلمي هل انتم تلى يتين من سحة هذا الحبر  
فقال نعم وقد سمعته من اكثر من واحد من الدين كانوا هناك وقد ارسل اليها والي  
دمشق لزحف مع دروز حوران على جبل لبنان فلم اتسأ ان افعل ذلك لان الدروز اعداؤنا  
ولا اركن اليهم . ولم افهم ما هو غرض الوالي من ذلك ولا كيف استحلّ اتل الآمنين في دار  
الولاية نفسها . ونحن نشكر الله لاننا في هذا الفرمستغنون عن التام وعن النزول اليها . واولادنا  
الآن قاحلة لاننا في فصل الحريف ولكن متى جاء الربيع تجدينها من جنان الحلد وسترينها  
في ذلك الفصل ان شاء الله

قال ذلك موجهاً كلامه الى الاميرة سلمي

فقال له انبى هنا الى الربيع لا سمح الله . تم كيف نقيمون في هذه الحيام وقت المطر  
فقال ان المطر لا يخرق الحيام ولا سيبا اذا كانت محكمة النسيج مثل هذه الحيمة . وفصل  
الشتاء عندنا من ابداع الفصول وسترينه ان شاء الله وقد سمعت انك تحبين ركوب الحيل  
نخيلي كالحيا تحت امرك وامر اخويك وعندي مهرة بيضاء نخيلي كالعروس  
ثم صفق بيديه فدخل عبد اسود فقال له هات غزالة ياشيدوب لتراها الاميرة سلمي .  
فذهب وبعد دقائق قليلة عاد يقود مهرة كالريم وقال لها هذه المهرة لا يعاوظهرها احد غيرك  
وهي وديعة كاللحم وسريعة كالنعامة

فذكرته وقالت في نفسها لعل له ابنة من عمري اركب معها . وكانت قد رأت نساء  
كثيرات في المضارب وعرفت ان واحدة منهن زوجته ولكنها لم تر له اولاداً وحقيقة  
امرهم انه كان قد تزوج بابنة عمه وولد له منها ولدان مانا بالجدري ولم يرزق غيرها تم طلتها  
وتزوج كثيرات غيرها وكان كلما سمع بابنة حسناء يحضنها الى ابيها تم لا يلبث ان يكرها  
ويطلمها وعرف بهذا الحلق حتى كان العرب يحفون بناتم عنه . فلما وقعت الاميرة سلمي في  
اسره لم يتك احد في انه يتزوج بها حالاً رضيت بذلك او لم ترض . اما هو فهابها في اول  
الامر وخشي ان ينظر اليها كما ينظر الى غيرها من بات قبيلته ولكه لما جالسها وسمع حديثها  
سوّلت له نفسه ان يحطها الى امها وابت عليه عادات قومها ان يحاطبها في ذلك قبل  
ان يريها ضروب الكرم . وكان له نديم ربي معه وشاركه في كل طرق الفساد فاطلمه على  
مرامه فسأله له قائلاً انها اسيرتك وليس لها ملجأ غيرك ويستحيل عليها ان ترفض طلبك  
وجاء الرسل من قبل الامير عمر الفضل طالبين فك الاسرى واخبروا الامير حسناً ان

الاميرة سلى مخطوبة لامير انكليزي . فهذه خبر كنهه يصدته وسأل الاميرة هند عن حقيقته فاستغربت ذلك ولم تسأله عن خبره بل فسدت له امره غير مخطوبة لاحد . فسرى عنه واستدعى الرسل وقال لهم انه يريد ام الامير عمر اليد ان هو فتمدها بثمة ذقة وشي جميل واما الاميرة هند واولادها فليسوا اسرى بل هم ضيوف عليه وقد ارطم على الرحب واسعة وهو اولي منه بحمايتهم وسيبقون في حماه الى ان يسكن الاضطراب في جبل بسن ثم يردهم الى بلادهم آمنين . وكان معه رجال من شيوخ قبيلته فاشاروا عليه ان يرد ام الامير عمر اليه حالاً حتماً لاسباب النزاع وان ما غنموه من امانية يكفي بدل ما فتمده تجره ويستصوب رأيهم وبادى الرسل وقال لهم " هوذا ام الامير عمر تغدوها لافداء ولا فكاك لكي تعلموا اما اكرم منكم وان ليس غرضنا العداة وانما الاخذ بالثار ورد ما سلبتموه من رجائنا " ثم امر لها بهودج وارسل معها جارية مخدمتها . فراءوا ان لا سبيل لهم للاعتراض ولا للادعاء بان الاميرة سلى مخطوبة لانها هي كذبت الخبر فعادوا من حيث اتوا

ومرت الايام والامير حسان يزيد تودداً الى الاميرة سلى وهي تزيد منه نفوراً . وقد ظلم الحب من سلى مثل هذا حباً لانه ميل شهواني دس . وضعت سلطة زوجها عليه بازدياد شغفه بالاميرة سلى فصار يتهددها بالطلاق كما لامته . واستقط في يد الاميرة هند ولم تعلم كيف تنجو من هذه البلية اما ولداهما فاخذت ما الغيرة والافقة وعزما على الغتلك به ان لم يرعو عن غيه . ولازمت الاميرة سلى خيمة امها وذهت تخرج منها وفي اكبها فخلت وذبلت ومرت الايام والشهور وهي تزيد ستماً ونحولاً وذاك العاغية يزيد جرأة وثقة واخيراً اتفق مع نديمه على ان يبعد الاميرة سلى عن امها وينقلها الى حيمة بعيدة ويحضر الشيخ ويكتب كتابه عليها غصبا . فاحتمل النديم عليها ذات يوم واحتملها هو ودله وسروا بها خلة الى تلك الخيمة فركضت امها حانية حاسرة الى حيمة وادبها وهي تله وتوح فاستطف احداهما سيفاً والآخر هراوة واسرعا وراء اخنهما فلاقهما الامير حسان ورحله وتبضوا عليهما واعتقلوها وجاء الشيخ ليكتب كتاب الاميرة سلى فسأل من ولي امرها فظننت الى قوله وقالت انا ولية امر نفسي ولا اريد الاقتران بهذا الرجل مطلقاً قالت ذلك وهي لا تدري كيف انها القوة لتنتق بهذا القول لشدة ما حل بها من الجزع ولكن النفوس الكبيرة يظهر مضاًؤها في المكاره . فقال الشيخ اذن لا استطيع ان اكتب كتابها . والظاهر ان الامير حسان لم يكون يتوقع هذا السؤال فوقف مبهوتاً لا يدري ماذا يفعل فاشار اليه نديمه وانفرد به وقال له ليس لك الا ان تدلها هي وامها حتى تصغر تقاسها وتضطر ان تفتدي امها



نفسها فقال اصبت . وامر ان تحرجا من خيمتها وتنقلا الى خيمة صغيرة ونقدم لها لوازم  
للعام منط وتجبرا على اعدادها بايديها من عجن وخبز وطبخ وامام عليها الجواسيس وابقى  
لولدين اعيدن عنهما

## الفصل الخامس والثلاثون

### الاحتفال في الحرش

استرقت الغزاة وانشرت اشعتها على ساحل بيروت فتلملل ندى الليل من حرها وتجمعت  
نطه على اوراق التلقاس كالدر وانسطت على اوراق الثوت كاغشية الحرير ثم ركبت متن الهواء  
طارت الى اعالي الفضاء فمطى الضباب تلك الهضاب ساعة من الزمان ثم تقشع عنها وصفا  
ديم الارض ووجه السماء وجفت الرمال الا حيث وقع عليها ظل الصنوبر ثم امتد الجفاف اليها  
كأها وعلا صرير الصراصير

ما هذه النصب العالية وما هذا الشعاع الذي يزري بشمس الضحى . دكة تعلوها قبة فوقها  
سب يتألمح السحاب وفي وجهه سيوف منظومة بعضها مع بعض كالشعاع المنتشر من كوكب  
رعي حوله اكاليل الازهار وشعار الامة الفرنسية واعلامها منتشرة ومجموعة على اشكال  
تى تأخذ بالابصار رونقا وبهاء

وما هذه الاطناب النازلة من اعلى القبة كاعمدة الصبح وقد النفّت عليها اكاليل الازهار  
الرياحين وامتدت كالهواجر الى ابعاد شاسعة

الميدان واسع بين الصنوبر والبساتين في ضاحية بيروت تستعرض فيه الوف الجنود من  
هد ابرهيم باشا ومن قبل عهده وهو الآن مزدحم مكتظ ترمي فيه الرمل فيقع على رؤوس  
ناس الا في دائرة كبيرة حول الدكة والنصب تركت مراعاً للولاة والفواد ورؤساء خدمة  
ربن واعيان المدينة وامامها مركبات المدافع والحيول مقرونة بها والجنود وضباطهم باخر  
للابس والحلل

ثم ثم ثم شهب تلغ ورعد يصقع والناس يجعلون اصابهم في آذانهم من الصواعق  
نذر الموت

ثم ثم ثم ارتفعت اعمدة الدخان وسردقت فوق تلك الجواهر فحجبت عنها اشعة  
عاجرة . ثم صمت كل صوت وسكن كل متحرك ونقشع الدخان وظهر على الدكة تحت القبة  
برجليل القدر بجلته الخبرية حوله اقيف من الكهنة يسبح الله بالخان شجيرة وتحمه رؤساء  
لانام بملابسهم الرسمية ثياب مقصبة ونياشين تتألق في الصدور . وربات الجمال بالحلى والحلل



والذين شاهدوا ذلك الاحفال من اهالي بيروت وضواحيها حسبوا ان الجنود الفرنسية احسأت سورية وان تخرج منها فتمت امية فرنسا التي غنتها من زمن حروب الصليب وامنية فربق كبير من سكان سورية . ومضت التهور والجنود تزيد توددا الى الاهالي والاهالي لا يجدون سببا للتكوى بل لم يجدوا لآكل ما يستحق السكر اذ كثرت الاموال وراجت الاعمال وتهدت المباني الفخيمة في بيروت وساعدت المساكرا اهالي لبنان في ساء بيوتهم المحروقة كان مارون وتمولا التاجران قد اشترىا بساتين كثيرة في سقي بيروت واراخي مسيحة في المدينة فرحاً ربحاً وافراً بارتفاع امانها وبراءة سعر الحرير ولم يكن يصيب غنطوس السمسار وعبد الله الوكيل قليلاً . ورأى الحواجه بنخور والحواجه شمعون ان ابتياع الاملاك ارجح من تدبين التهود فعوضا اصابعهما ندامة على فوات الفرص وبادرا الى مشرى ما يمكن مستراه من الاراضي التي قرب ساحة السمك اذ بلدهما ان المدينة ستمتد من تلك الجية

واجتمع جماعة من الوجوه في بيت كبير من كراء بيروت وكان الشيخ درويش ابو فخر معهم اتى من غير دعوة شأن كل فضولي . ودار البحث على الاحوال الحاضرة بعد ما قتل نواد باشا والي دمشق وكثيرين من المأمورين والضباط واعقل والي بيروت . قال واحد من الحضور ان الافرنج رشوا الوزير حتى فعل هذا الفعل المكر وقال آخر بل اذه فعل ذلك باوامر من اسطنبول لكي يسكت دول اوربا . وكان بين الحضور رحل دمهتي اتى حديثاً من دمشق وتهد ما حدث فيها فقال لهم ان الوزير لم يفعل عشر معتار ما يطلب منه فانا تد شاهدت كل ما حدث في الشام ولولا لطف المولى وشهامة الامير عبد القادر ما اتقوا احداً والعملية مدبة من اسطسول اعترفا بذلك او لم نترف ولا اتقول ان القصد قتل هذا المقدار من الاهالي بل ايقاط الفتنة لكي نتداخل دول اوربا على ما قال لي احد العارفين مدحائل الامر والطاهر ان اصحابنا لا يهمهم خربت الدنيا او عمرت ادا كان لهم غرض سياسي

فقال اه آخر وما هو هذا الغرض السياسي هل يريدون ان يسلموا البلاد للافرنح ببحم الله وقبح سياستهم نامها كلها نفاق سفاق

وقال الشيخ درويش الحق في يد الشيخ مصطفى فاني انا سممت الوالي يدول المايح الدرور اذ يساعدهم ويحمهم . ولما زارني في رمضان الماضي قال لي يا انا فخر يجب ان تجتهد وتسميل الامير احمد رسلان . فعملت كل واسطة معه والمسألة مدرة كما قال الشيخ مصطفى واكن ما عمره حطر ببالي اما تطلع في الآخر من راس الوالي ويلقى كل اللوم عليه قتال الشيخ مصطفى حبسوه يومين على عيون الناس وبعدهما يفرج عنه

فقال الشيخ درويش وكان في ذلك الوقت  
 فقال الشيخ متعديني قدود بأنه قد...  
 يخفوا حذرا لا...  
 قال آخرون فوكم كل...  
 وجب ان اوثر لا...  
 فنص الاكابر صحتي وهو يترتب...  
 الفرنسي دخل على هذا الشرط...  
 من الترجيح والترجيح...  
 الشيخ مصطفى...  
 هنا رجعت الالغص واصضحت...  
 العسكرية كما تعني الدولة...  
 فاجاب الشيخ درويش ان الفرنسيين...  
 تصادقت مع كثيرين منهم...  
 وبعد اخذ وعطاء على هذا...  
 الجميع بالترام السكينة الى ان...  
 امر ذي بال فيها

### الفصل الخامس والثلاثون

#### مؤتمر بيروت

اجتمع معتمدو الدول المت توقعات على عيدة باريس اجتمعوا في مدينة بيروت...  
 حوادث لبنان وغرضهم البحث عن الجانب وعقوبتهم والتعويض...  
 حكومة اللجبل يؤمن معها حدوث ما حدث ورأى المؤتمر ان يقدم...  
 مسألة التعويض لان التناز كان على الابواب واراد ان يعطي...  
 به جوعهم ويكسعو عربهم ويسانداهم على بناء بيوتهم اذا ارادوا العودة اليها...  
 بهيشته الى دمشق ورأى ما حل بها من الدمار وقدّر الخدائر بثلاثة ملايين من الجنيات...  
 وبعد بحث طويل واهتمام الوزير بتقليل التعويض المطلوب الى اقل ما يمكن الوصول اليه...  
 عين متداره وقيل انه قيمة السلوبات او ما يراد رده منها وكتبت التواتر في ذلك ولكنها

كانت مأكلًا لاهل الطمع ولم يصل الى الفقير منها الا شيء لا يذكر. وقد طبع الناس على الظلم حتى وهم متساوون فيه وراسفون في قيوده. يظلم بعضهم بعضًا. خلق في الانسان موروث من الحيوان لا يفلت منه الا تليلون. وكم من مرة وقفت ارملة مسكينة وطفلها على ذراعها امام بيت رجل كبير من اهالي بلدها تطلب منه ان يمن عليها بجزء مما سُمح به لها من مسلوباتها وهو ينتهرها ويقول لها لم اقبض شيئًا او هذا كل ما سمحوا لك به ويعطيها ربع ما اخذ. وبما زاد الطين بلة ان المسلوبات قسّطت اقساطًا وأعطيت بها سندات فجعل الصرافون يشترونها من اصحابها باقل من قيمتها فقل ما نال اصحابها منها

ولما انتضى البحث في مسألة التعويض انتقل اعضاء المؤتمر الى البحث في المسألة الاولى اي عتاب المجرمين فطلب فؤاد باتنا من رؤساء النصارى ان يكتبوا اسماء كل الذين يعلمون انهم ارتكبوا الجرائم. فارتكبوا الشطط حتى صار اعضاء المؤتمر عليهم بعد ان كانوا معهم فاضطروا ان يعدلوا طلبهم وما زالوا يعدلون واعضاء المؤتمر يطلبون المزيد في التعديل الى ان انحصر الطلب في نفر قليل من اعيان الدرور فقبض عليهم واودعوا السجن وفي جملتهم الامير احمد ارسلان

وعاد المؤتمر الى النظر في الامر الثالث وهو انشاء حكومة منظمة في جبل لبنان يؤمن بها العودة الى مثل ما حدث فيه فبحث في هذا الموضوع طويلًا وقرّر اعضاؤه بعد النظر والروية ان يتولّى ادارة الجبل متصرف مسيحي تخاره الدولة العلية بالاتفاق مع سفراء انكلترا وفرنسا وروسيا ويساعده مجلس ادارة ينتخب اعضاءه سكان الجبل فهو كمجلس الشورى في البلدان الدستورية وقرروا سنّ دستور لادارة الجبل على غاية الدقّة وفرضت المساواة التامة بين جميع سكانه وانتهت جلسات المؤتمر في اوائل شهر مارس

## الفصل السابع والثلاثون

### النجاة من السجن

هذا يومك يا مسرور سيدك في السجن واخاف ان يقتلوه لا لانه مجرم مثل غيره بل لانه كان يتردد على قنصل الانكليز فلا بد لك من تحليصه وقد عرضنا الامر للقنصل فوعدنا خيرا وهو صادق في وعده ولست خائفة منه بل من اولاد الحرام ان يغدروا باحمد فنخذ ما شئت. هذه عشرة آلاف غرش خذها وبرطل بها السجنان او برطل من تريد واذا ما كفت فنخذ غيرها لخدمته الف غرش وانا اعتمادي عليك بعد الله ولا تخبر احدا على

الاطلاق بل دبر كل شيء وحدك ولكن لا بد من الحيلة لاني خائفة جداً ان تضيع الفرصة علينا . آه ياربى ما هذه المصيبة من اين اتنا هذه اليد . قلت له الف مرة هاتك ولذذه الاجتماعات قلت له انزل بنا الى بيروت وخلصنا من اولاد عمك ومن مشايخ العتل ثلث له امش مع قنصل الانكليز مثل ما متى المرحوم والدك فما سمع مني . الله يجازي الدين كانوا السبب الله يخرب بيوتهم مثل ما خربوا بيوت الناس . قم يا مسرور وخذ ما شئت ولا تدعني ارى وجهك الا واحمد معك ( قالت له الامير احمد هذا التول والدع مله سيديها )

فقام مسرور ووضع نصف التول في كمره ونصفها في كية به وهي مثله ليرة فرسوية وركب الى بيت الدين حيث كان امراء الدرروز ومشايجيم مسجونين وجعل يتردد على السجناء ويشرب معه الدخان ولا استوثق منه اعطاه عشرين ليرة فحفظت عينا الرجل لانه لم ير في حياته نصف هذا المبلغ في يده وانفق على ان يسكرا الخفراء لانه خاف ان يرتد بهم فلا يكتموا السر كلهم واشترى مبرداً كبيراً من بيطار واحضره الى السجن فاولحده الى الامير احمد لكي يقطع به القيود من رجليه وانتظروا الى ان كانت ليلة مظلمة من نيام الحاق تلبدت القيوم في سائها وحجبت نجومها فدخل السجن واخرج الامير احمد وسار في الهويونا الى ان وصل الى الباب الخارجي فوجد الخفراء قد استيقظوا واوقدوا ناراً اضاءت ما حولهم فعاد به من حيث اتى وجاء مسرور في الصباح فاخبره السجن بما جرى . ووصل الى ما مور السجن في ذلك اليوم كتاب من غير اضاءه يتال فيه ان احد الامراء اسجونين عار - الى الفرار فتعهد ابواب السجن واقفلها بنفسه وضاعف عدد الخفراء

واجتمع مسرور بالسجن فاخبره السجن بما حدث فعزم ان يذهب الى المأور ويرشوه ولكنه لم يجد اليه سبيلاً فعاد يفكر في الامر فلم يجد اسلم من ان يقيم مقام الامير احمد وروح الى الشويقات واحضر عبداً آخر من عبيد مولاة وصباغاً اسود واتي به الى السجن يعطيه للامير احمد حتى يصبح به وجهه ويديه

فتمت الحيلة ووضع مسرور القيود في يديه ورجليه بدل مولاة وخرج الامير احمد من السجن وسار مع عبده الآخر وجعل يسريان ليلاً ويخفيان نهاراً الى ان وصلوا بلاد بشارة اخفيا عند الشيخ نصار احد مشايخها ومرت ثلاثة ايام ومسرور يدعي انه مريض فيفنه لا يخرج منه واخيراً دخل المأمور يفتقد المسجونين فرأى العبد مسرورا بدل الامير احمد وشاع الخبر حالاً في بيت الدين وقامت له البلاد وقعدت وقبض على السجن واودع السجن يتحدث مؤتمر المعتمدين بهذا الامر واصر معتمد فرنسا على معاقبة العبد والسجن والتفتيش عن

الامير احمد ومعاتبه ايضاً وكان مؤاد ياساً مؤيداً له وحالفها لورد دفرن معتمد انكليترا لأن  
الكلول روركان يعنتد براءة الامير احمد ولو لم تكن لديه الادلة الكافية على ذلك وقد اعجب  
بشهادة العبد مسرور كما اعجب بها كل من سمع عنها. وأرسل الرجال للتفتيش عن الامير احمد في  
كل انحاء الجبل وجيات الولاية ووصل ثلاثة منهم الى قرية الشيخ نصار الذي كان الامير  
احمد مخفياً فيها وكانوا متنكرين فلما وصلوا الى العيت التي يستقي منها نساء القرية جلسوا  
واخرجوا زادهم وجعلوا يأكلون وطلبوا الماء من النساء ليشرنوا نامتنعن لانهن يتجنسن من  
كل من يشرب من آيتهن من غير المتأولة واخيراً اتت امرأة من نساء النصارى بجرتها  
وستتهم ووقفت نتحدث معهم ووقفت غيرها من النساء معها واجتمع بعض الاولاد فاشارت  
عليهم احدى النساء ان ينزلوا في المروول في دار الشيخ نصار فقالت اخرى ان عند الشيخ  
نصار ضيوفاً فتالت الاولى هؤلاء ليسوا ضيوفاً بل هم امير من امراء جبل لبنان وعبد  
فاسكتتها الثانية قائلة ان هذا الكلام لا اصل له والتفتت اليها وعضت على ثفتها فادرك  
الرجال حالاً ان ضالتهن المنشودة في بيت الشيخ نصار شيخ تلك القرية لكنهم تجاهلوا ذلك  
وبقوا في مكانهم الى ان انصرف النساء عنهم وقرّر قرارهم علي ان يعود واحد منهم الى بيروت  
يخبر بما سمعوا ويبقى اثنان منهم في القرية او ينزلا ضيفين على الشيخ نصار ليراقبا حركات  
الامير احمد وسكناته

فعاد اقدمهم وسار الانان الباقين الى دار الشيخ نصار ونزلا في المزل الذي ينزل فيه  
الضيوف وهو غرفة كبيرة فيها فرس كثيرة يزورها الشيخ كل يوم ليرى النزول فيها ويسألهم  
عن راحتهم ويقدم لهم الطعام في ارقائه الثلاثة من غير ان يسألوا عن غرضهم لكن الشيخ  
اوجس خيفة لما رآها فرح بهمما على جاري عاتده واخبر الامير احمد بذلك واخرجه في  
ظلمة الليل من باب سري وارسل معه انيت من خدمه لوصوله الى حدود بلاد حوران  
فيصير في بلاد الامان لان حوران ملجأ الدروز وليس للدولة كلمة نافذة فيها

فسار الامير احمد معها ماشياً على قدميه بزي فلاح من فلاحى تلك البلاد الذين  
يذهبون الى حوران للتعيش فيها ولم يأخذ عبده معه لئلا يعرف به بل امره بالعودة الى  
التويقات ليخبر امه بسلامته وبانه صار في بلاد الامان وقد كان معتاداً المتسي مسافات  
طويلة يخرج الى الصيد في الصباح فلا يعود الا بعد الظهر وقد يقضي النهار كله ماشياً على  
قدميه يصعد في التلال وينزل الى الاودية ولا يشكو تعباً لا لانه لا يتعب من المشي بل  
لان خفة روحه كانت تنسيه التعب اما الآن فكان الهم قد انك قواه واشتد لومه لنفسه

نه ما فعل حسب مشورة امه وانتقل الى بيروت واقطع عن مجاورة قومه لا سيما وانه كان  
 تقدم انهم مخطئون في عملهم وكانت صورة ابنة خاتمة الاميرة سلي لا ترضى امام عينيه وقد  
 طعت اخبارها عنه بعد ان رحل بها ابوها عن حاصبيا ووصلت معه ولكنها لم يصله من  
 بدر يوثق به ولا كتبت اليه خاتمه في هذا الشأن ورأى المستبلى كلمة مشيئة امام عينيه  
 ليس على عين ماء في ظل صخر وغسل يديه ووجهه وكان التعب قد اخذ منه كل ما أخذ  
 كما على الصخر وران سلطان الكرى على جفنيه وحلم انه وصل الى بلاد حوران فاحمله شيخها  
 الرحب والسعة وصار يركب مع قومه ويفزو العرب انجاورين له فوقع في ايديهم اسيرا  
 ضعوا التيبود في يديه ورجليه وضيّقوا خنائه ورأى الاميرة ستمى وهو على تلك الحالة فادا  
 مع الجوارى تحلب البقر وعليها ثياب اسمال وسيدتها تسبها وتضرمها فهب كي ينقذها  
 ما ونسي قيوده وسلاسله فوقع واصاب جبينه الصخر فشدخه فنبض من نومه والدم ينزف  
 جبينه فقال هو حلم ولكن ما اقيحه وتناد ينسل جبينه الى ان اقطع الدم

شمعون - قالوا التعويضات حتى لم يبق منها شيء يذكر . قدروا تعويضات الشام  
 اثمثة الف كيس وانزلوها الى مئة وخمسين الفا والآن مراد الوزير ان ينزلها الى خمسة وسبعين  
 افما عادت تجرز

بخور - ان الدولة لا تدفع تقودا بل تعطي سندات عليها بالبنائع التي يلزم دفعها ويمكننا  
 نشترى هذه السندات باقل من ثمنها الاصلى عشرين او ثلاثين في المئة وهذا باب واسع  
 نجح يجب ان لا نتعاضى عنه

شمعون - كلاً وليس لنا مناظر الآن فيه ولكن بلغني ان مرادهم ان يفتتوا عن المسارات  
 لها ويستردوها فماذا فعل يوسف بالصيني الذي اشتراه وسائر الامتعة المنهوبة  
 بخور - صرف بعضها وارسل البعض الآخر الى مصر وهي مطاوعة هناك

شمعون - لقد احسن في ما فعل لانه بلغني ان القناصل والمعتمدين يشددون لاسترجاع  
 كل المنهوبات . وهل تظن ان العساكر الفرنسية تبقى هنا

بخور - لا اظن ويظهر من المكاتيب التي اتتني اول امس انهم يرحلون في اوائل الصيف  
 كانت فرنسا طلبت ان يعين والي الجبل من بيت شهاب ولكن انكثرت اعترضت على ذلك  
 لدولة معها ولا يعد ان يعين الوالي من الخارج وعلى كل حال اله آياتنا معنا وهو يدبر  
 كل الامور لخيرنا



## الفصل الثامن والثلاثون

السلطان عبد العزيز

امي فتد عددتُ منها اكثر من تسعين مدفعا ولم ابتدئ من الاول  
 مام منصبين من الطين فيهما قصب قائم عليه قفل من الحرير حسب  
 تي كان الحرير يحلُّ ويلف عليها ويدها كوفية تكبه عليها حتى  
 هي في نحو العاشرة من عمرها وليس في الغرفة التي كانت فيها غير  
 مطوية وبعض آنية الطبخ من كانون وقدر ومخاف - غرفة حقيرة  
 ذرة غبار ولا رائحة خبيثة بل بالصد من ذلك ترى امامها خيمة  
 لازهار الجميلة الالوان من الريحان والافستين والقرنفل والندل  
 ما في الغرفة وامتزج بهوائها امتزاج الراح بالماء. وهناك ورد جورى  
 تفتح لكي يخرج منها ماء الورد فان صاحب البيت بتاء واجرتة كافية  
 ك الوقت اذ ارتفعت الاجور لكثرة المياقي التي كانت تبنى بمال  
 ولكنه كان يتقاضاها يوم السبت ويسكر بها يوم الاحد ويقضي  
 السكر وهذا دأبه فتضطر زوجته ان تسلك الحرير وتخرج ماء  
 تكتسب هي وابنتها ما يكفيهم

المدافع وانا آتية وسمعت الناس يقولون انه مات السلطان عبد  
 عند مدخل البستان فبست يده وسأته عن الخبر فتال انه صحيح  
 كنه طمن بالي

ا مدهوشة وقالت " مات السلطان " وحاولت ان تدرك معنى هذا  
 كرت ايام الخوف الماضية حينما قُتل رجل واحد وكيف انها هربت  
 لما وتأخر ابوها عن الرجوع الى نصف الليل فقلقوا عاينيه لكنها فحمت  
 نها وتال لها اذ ليس هناك ما يخشى منه . وهو رجل صالح وكل الناس  
 رسنه ولصلاحه فصمتت ولم تقل شيئا ولكنها بقيت تنظر الى امها  
 اذا كانت مطمئنة او مضطربة

ن صوت اطلاق المدافع وكان جرجس يكيل ثوبا من القماش  
 ذرع وهو جالس متربعاً في دكانه بسوق البزركان والدكان مرتفعة

عن ارض السوق قدر ثروته ستين حده يباع في يوم واحد مائة مائة ميسير مترا  
 معية فوق لمكان في اربعين مائة من شمس ومسرح ولا يراى ان الشمس لا يكل  
 يصل الى الارض وارتفع مكان عن ارض سوق مترين من اسفل الذي يجري في  
 اسواق بيروت كذا اشتد وقع الضرب بها ثم سمع صوت المدح رتجت يدها واس الكيل  
 ورد الوب الى مكانه وحافت امرأة سدات مدبلها على وجهها وسارت في ضربةها مسرعة  
 واتفق ان مر رجل من التجار نكروا في تلك حصة وكان جرجس يعرفه واستوقفه وسأله عن  
 سبب اطلاق المدح فأمر في ذلك فلامت سلسر عبد الحميد وصو السلطان عبد  
 العزيز وسأله جرجس هل من خوف عليه. رفع جرجس حياء وسر سفتيه سرية من يتولى لا  
 اعلم ولكن الامر لا يجوز من احضر وكانت عاقبة كالكين عذرة قد تطالت كما  
 نسمعوا ما يقوله التاجر ولم يكده جرجس يرى سرته حتى رل من دكا في ورع المروندين  
 وانزل انقلب الاعلى ورفع لاسفل وانقل الباب وفتدى في كذا اصحاب دكا كين ولم تكن  
 الا دقائق قليلة حتى لم تعد ترى دكا مفتوحة في تلك السوق وانقل كتبرون دكا كينهم في  
 سائر الاسواق واسرعوا الى بيوتهم وجعل الناس يتكلمون هم ولا يجترى حد ان يرفع  
 صوته كأن آثار الجور والظلم رسخت في نفوسهم رسوخ الصنع وتورود حلقه عن سلب فلا  
 يحدث حادث حتى تراهم يذعرون ويهرون الى بيوتهم كأنه فعل عصي معكس لا دخل  
 للادارة فيه ولا لقوة اخرى من قوى العقل

وكان نساء مسلمات ومسيحيات في مار الياس يفين بنذورهن مذعور ما سمعن اصوات  
 المدافع وجعلن يضرعن الى مار الياس او الخضرة المظف من وقي عيد من ومن في دت  
 سواء كانهن من مذهب واحد لا فارق بينهن

وخرج ابو نجر من بيته ليسأل عن سبب اطلاق المدح وسمى الشيخ مصطفى صاحبنا  
 من المدينة فاخبره بموت السلطان عبد الحميد وتنصيب السلطان عبد العزيز وحمدته  
 فجانا الله من احتلال الفرنسية لبلادنا واعطانا سلطانه لا يفضل لافرنج عليه  
 فقال له الشيخ مصطفى ومن قال ان السلطان عبد الحميد كان يفض لافرنج عليه. وجاءه  
 الظاهر انك غائب عن البلد ألا تعلم ان كل هذه الحركات وانقلاب مسبة عن ذلك ولكن  
 هذا سر لا يعرفه غيري اطلعني عليه الوالي لما زارني في رمضان الماضي  
 والتقى مارون بنقولا وقال له لم نستفد فائدة تذكر من مجيء الفرنسية ولم نكد فرح  
 بجيئهم حتى خرجوا عن آخرهم واخاف ان تهبط اسعار العقارات اني اشتريتها

ان سياسة الانكليز تطلب سياسة الفرنسيين  
ت من الاول ان الانكليز غير راضين عن عجيء المساكر  
، بقرش واحد لان سياسة الانكليز دائماً غالبية ألا تذكر ما  
كانت معه واكتنهم قوّموا اوربا كلها عليه حتى الزموه ان

مصر

لا أرى ان الاسعار هبطت ولا هي مائلة الى الهبوط واسعار  
لا بدّ ما تصطلح الاحوال في ايام السلطان الجديد

في الاحوال الحاضرة فقال شمعون كتب اليّ ان خالتي من  
- سيستدين اموالاً كثيرة فتروج الاشغال وتكثر المكاسب في  
تب لك ذلك والسلطان لم يجلس إلا امس . فاجابه تميمون انه  
سية . ولكن ابن خالتي وكل اصحابنا في فينا وباريس ولن درا  
، عبد العزيز من قبل ان يتولّى وامور مثل هذه لا تحنى عليهم  
لعلماء في دار رشيد افندي وهنا بعضهم بعضاً بانفراج الازمة  
ا وخرجت الجنود الفرنسية من بلاد الشام وحلّس السلطان  
لنة بعد ان وعدهم المواعيد الوتية انه يكف ايدي اوربا ولم  
دروا . واعترض احد العلماء على ذلك بان الحمود اسرمت في ما  
الامكان ان يفعلوا غير ذلك . واجمعوا على تقديم السكر نفوآد  
ذي انتدب له

البارلنت الانكليزي فاسارت الى وفاه السلطان عبد الجيد  
، وذكرت الاول بنفساء له واسارت الى انف الامة الانكليزية  
من النفع منه لبلادهم وشكرت فرنسا على ما أدته من الخير  
والى حفظها لعودها واخراج جنودها منها حالما استتب الامن  
ية تعقيداً

مجلس النواب بفرنسا فاعترض زعيم الراديكاليين على خروج  
ة ولح الى ارتساء قائدهم فانتهره رئيس المجلس واستند الجدال  
خيراً طلب الرئيس الاقتراع على الثقة بالوزارة فكانت الاغلبية  
ي مجلس الشيوخ فلم تلق من الاهتمام ما لقيته في مجلس النواب

تتمتع بجمع و ملازم

حاصل كواهن در شهر كاشان و جمع من ... دور من حذرة ...  
وقع بغرزة هي تجوز لجمع و جمع ... من و ...  
علا و رأى نسبي يجوز ... جمع ...  
لأنه تقرأ عليه من ... فتذكر ...  
وتو وشكر نسبي ...

وكان فواد بن ... في ...  
كان مستعداً لاستقبال ...  
ان الوقت وانفتحت كوفت ...  
شر دقائق وهو يتنثر على ...  
سرهزري وقال على ما جمع رايت

فقال السرهزري لا بد لي من الذهاب بنفسي فند ...  
فأتم مع الشيخ اسمعيل لأضرب الدعوة ...  
بور الدائرة فان لاير حساً ...  
اسره فخرج مرارة ...  
نوباً او شرقاً وزاد في ادلاسه ان ...

فقال الكولونل وكيف تذهب بنفسك ...  
السرهزري - يا حبة الواء كني ان ...  
دترك كل واحد منهم بثقة من البدو ...  
الكولونل روز - ان ذلك غير ميسور ...  
لأبقرار دولي خاص . ولا يزال البارشت ...  
براقموا الدنيا واقعدوها متخذين ذلك ...  
تطيع ان نطلب من الوالي فيعطينا فرقة ...

السرهزري . وما ادرانا انهم لا ينضمون الى بني ...  
الكولونل - هذا بعيد الاحتمال لانهم اميل الى الدروز منهم الى البدو وليس لهم مصلحة

خصوصية في الانضمام الى هذا الفريق او ذاك ولا بد ما يفعلون بامر الوالي  
فصمت السر هنري وفكر في الامر هنيهة ثم قال اظن ان هذا هو الرأي الصواب فنطلب  
من الوالي متي مارس وانا اقوه بنفقاتهم

فقال الكولونيل رنا ان الله يباع اذا ذهب معك عشرة من الجنود البجارة لجابتك  
ووصل فؤاد باتسا في الميعاد وكان راكباً جواداً مطهماً وامامه ووراءه كوكبة من الفرسان  
فلاقاه الكولونيل الى باب المدخل وتباحثا وسلم على السر هنري مصالحةً لانه كان قد رآه  
مراراً في المخارات السابقة وجلس الملائمة في غرفة الاستقبال يدخنون التبغ الجبيلي ويتجادلون  
اطراف الحديث باللغة الفرنسية فان فؤاد باتسا ان مهمته قد انتهت ولا يبعد ان يعود من  
سورية قريباً وتشكر الكولونيل روز والسر هنري ما ابدياه من المساعدة لهما وحكومتها . واستطرد  
الكولونيل روز الحديث الى احوال الدروز في جبل حوران واحوال البدو الجاورين لهم .  
فراه عارفاً بما بينهم من الضغائن وبنشوب الحرب بين عرب الفضل وبي صخر وبانحياز  
الدروز الى عرب الفضل وحاسباً ان هذه الحرب ستضعف الفريقين فيسهل كبح جماحهما  
والتسلط عليهما فاحبره الكولونيل ان في امر بني صخر اناساً يهيم السر هنري ابقاؤهم منهم ويود  
ان يذهب اليهم بحامية من الجنود العثمانية

فاستحسن فؤاد باتسا ذلك وعرض عليه خمس مئة فارس يرسلهم مع السر هنري فسكره السر  
هنري على ذلك وانتلوا الى الكلام على حكومة لبنان وغرض فرنسا من رد ولايته الى الامراء  
التمهابيين واعتراض اللورد دفرن على ذلك فان فؤاد باتسا انه كان يفضل ان يقسم الجبل الى  
قسمين يضاف قسم منهما الى ولاية دمشق وقسم الى ولاية بيروت . فبذره الكولونيل ان  
الدول الاوربية لا توافق على ذلك فليس من الحكمة محاولته . اما البقاع فلا بأس بضمها الى  
ولاية دمشق لان اكثر سكانها من غير المسيحيين

ولما انتهت الزيارة قام فؤاد باتسا فودع بما قول به من الاكراه

## الفصل الرابعون

### فصل الخطاب

مر على الامير احمد ايا لم ير اشد منها الى ان خرج من حدود الشام ودخل بلاد حوران  
ولم يكد يصل الى تلك البلاد حتى التقى بجماة من دروز لبنان فعرفوه وساروا به الى الشيخ  
اسماعيل الاطرش فرحب به واكرم ونادته وانزله في انحر بيوته واقام جماعة من رجاله على

خدمته والتف حوله كثيرون من دروز الجبل وسنخيه الذين هربوا من لبنان وكانت  
عيون الشيخ اسمعيل تستقط الاخبار وتأتيها من كل رحبة نالا يجري تقي في دمشق ولا في  
لبنان ولا في بيروت ولا في بلاد الجولان كما لا يأتيه خبر ولا من اصدقاءه في بيروت  
يرسلون اليه بما يبلغهم من اخبار الاستمة وخبر البلدان الاوربية ويفعل في الاخبار  
السياسية وقد بلغه كل ما حدث في مؤتمر بيروت وما قرّر عليه قرار عضائه من احسار وال  
سجي للجبل من غير طوائفه فاحد ينداول مع الامير احمد في طريقة لارحاع دروز الجبل  
الى بيوتهم فترّ رأيهما على ان الامير احمد يكتب الى تخلص لاكتيز الحدال في بيروت  
بطلب منه ان يتوسط امرهم عند ولاية الامور فكتب اليه واخبره عن احوال بلاد حوران  
بما جاورها

ولما بلغ الامير احمد ما حال بغائلته واولادها بعث رسلاً الى الامير حسان امير بني صخر  
يتودّد اليه ويخبره ان الاميرة هند خاتمه ويطلب منه ان يطلق سبيلها وسبيل اولادها وارسل  
مع الرسل هدايا فاخرة من منسوجات دمشق واستحبتها وكان الامير حسان عاتق في بعض معزيبه  
فانتظروا الرسل الى ان عاد وقدموا اليه الهدايا وسلوه كتاب الامير احمد في بعض ولا قبل  
الهدايا لان الاميرة هند واولادها كانوا يسمعون من الكلام فاضطر الرسل ان يعودوا فرغين ثم  
اوعز الى بعض اعوانه فاقترفوا اثرهم وقتلوا واحداً منهم وسلبوا ما عندهم فعدوا وحربوا  
جري لهم فارغى الشيخ اسمعيل وازيد وكتب الى الامير عمر امير عرب الفص انه يجده يحبس  
مئة من فرسان حوران اذا قام لمحاربة بني صخر ودارت الرسالة بينهم ثم اجتمع الاسان وحقن  
الامير احمد معيماً وقرروا خطة الهجوم

وفي الوقت المعين خرج فرسان الدرروز من حوران وواضوا السير الى ان لما حل  
عجلون فالتقاهم الامير عمر وانزلهم على الرحب والسعة واودعهم لولاء ثلاثة ايام حسب عادة  
الضيافة عند العرب وقاموا في اليوم الرابع وساروا اربعة آلاف فارس ومعهم اجنح تحمّل رعد  
والماء وقصدوا اللقاء وكانت اخبارهم قد وصلت الى الامير حسان فجمع رحاله وحلاه وخرج  
للقائهم في سهل فسيح يبعد عن الجبل الذي كان ممتنعاً فيه نصف مرحلة

ونام الفريقان تلك الليلة في السهل يفصل بينهما غدير صغير وخرائب مدينة قدينة . نام  
الظليون واما الشجيون فاحبوا الليل بين احلام مرعبة وهو اجس مزعجة - الامير حسان متظير من  
تلك الواقعة لان غراباً مرّ عن يساره حالما خرج من مضربه وزجره فلم يزدجر والشاعر الذي  
غناه بالامس ابتدا نشيده بقوله " يا دار غيرك البلى " واليوم الذي اضطر ان يخرج فيه

سه وقال في نفسه ان دارت الدائرة على رجالي عدت الى المضارب  
 ها ولوعيرني العرب ابد الدهر لانهم سبب هذه البلية . ثم اغمض  
 تبيض سيفه فارتخت اصابعها ووقعت فلم ان جواده عثر به في حومة  
 مذعوراً . ثم عادت به الهواجس الى فيافي الخيال ففكر بالاميرة  
 لب النياق والدمع قد قرّح جفنيها فادارت وجوها عنه خجلاً منه او  
 اللثام اذا رآوا الضعيف ذليلاً بين ايديهم وفكر باخويها وقد صارت  
 شفقة عليها ولا رثى لحال امها بل احندم غيظاً على زوجها لانه  
 من طعامها

يفكر الا باخذ النار وكشف العار وتخطر بباله الاميرة سلمى فيردد

مسكنها في السماء فعزّ الفؤاد عزاء جميلاً

بايع اليها صعوداً ولن تستطيع اليك نزولاً

منه اليها ابن خالتها وذلك الامير الانكليزي الذي اخبرته عنه  
 العمة لانه اوقعه في حب فتاة لا يستطيع الوصول اليها وعزم ان  
 يسقيه دواء السلوان<sup>(١)</sup>

حمد يطير فرحاً لان التقادير يسرت له ان ينتد مائة راولادها من  
 ذلك لا بد وان يلين قلب سلمى ويريل منه كل ارم من حب ذلك  
 تحلى عنها وتمت السدّة مع انه من اقدر الناس على نجاتها كيف لا  
 البحر وكلمة واحدة . انه للوالي تقيم البلاد ونسدها ولا بد لي من ان  
 تجرله

يكن يفكر الا بتحاؤ رحاله مع عرب افضل حاسباً ان ذلك يعزز  
 با من تشديد الوطأة في طلب المتأخر من الاموال الامبرية . وكان قد  
 نقر تليل من رحال الجبل وعفت عن البانين فلم يتق له هم انه ان  
 ية وود ان تنتهي هذه الواقعة باسع ما يكون حتى يعود رجاله الى

وله يكذب المرحون يعلمون حتى لا يملح حتى يح معسكره ووالا امير حسن سيد وهدير  
 واشتدت الضوضاء وجعل امرين ينادون بنبوءة تسمى كورين و تسمي كورين و تسمي كورين  
 أمة الامير عمر واتبع سمعوا قده طوفوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية  
 التائدان خفة اصحوه . و الامير حسن في رحله في كل ناحية ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية  
 بكل بقعة ومهبل وسندتي متدحمة وكرور في كل ناحية ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية  
 مع الكمين الذي قاده له و تكلم الشمس تروح من وراء كل ناحية ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية  
 الاطلاق البنادق وحذوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية  
 وصاح لا يضل واصطدم تنجها و تلت ايض في كل ناحية ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية  
 من العقبان و تسمي الضاع في و حرد في كل ناحية ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية  
 اية متهايل الجبين وهو يقول لا تطهر لانه لا يسمي في كل ناحية ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية  
 الشمس واشتدت المحير واخر ب حرد و غريش كاشفي ميرت تحت هجر بريح .  
 من الاصلال من وقع سنايك احيى وتعذر عليه الاكل في كل ناحية ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية  
 اليرابيع . وبيننا الجياد تكلم تسبح في عزمه همت ريش مرمر شمس في كل ناحية ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية  
 ما ولم تكلم الشمس قبل عن الهجرة حتى ظهر ومن في رحل الامير حسن مضاروا  
 ون خطوة ويتأخرون خطوتين كمد حرد في كل ناحية ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية  
 ون في وجوههم وفي انفيهم ان ان ارضه في كل ناحية ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية  
 اد . وكان الامير احمد اسرع الجميع في كل ناحية ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية  
 حوران فجعل يفتش عن حاشية وولادته في كل ناحية ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية  
 يكذب يصل اليه حتى تلت الهجرت ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية  
 تار من مكنته في تلك العجة ودمع ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية  
 الامير حسان مستعجب به اسر سمعه ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية  
 الا الصبر في ذلك المازق الخرج فاتسموا عريتين فريته وقت في وجه كمين ورتنا  
 الامير حسان ورجاله ويا لها من سامة تكسرت فيها ايض في كل ناحية ووردوا في كل ناحية ووردوا في كل ناحية  
 ساح وتطاييرت الجماجم عن الابدان واشتمرت اجنت على احصصان وبينه التوم  
 ن الموت الزوام ويحسبون ان لا مناص لهم من شرب كأس الحمام وقد زرعت الرعي  
 جيوبها وادارت المنون عليهم خطوبها علا الغبار من الشمال فظنوه اعصارا وماج  
 بالفرسان نخالوه تيارا . وقال كل لسان الدولة الدولة جنود النضاه يسارقها وفرسان



لقرىقان في من المعني\* بهذه الغارة ورأوا فرصة للكف عن القتال  
 لة الحال ولم يكن الأ دقائق قليلة حتى وصلت الفرسان وقد عقد لواءها  
 يش العثماني ومعه السرهنري بدمونت ونقر من الجنود البحارة فوقعت  
 مين فائقصلا ووقفا منتظرين الاوامر ولما تم انفصالها نادى سليم باشا  
 والشيخ اسمعيل فاقتربوا منه وترجلوا في حضرته فامرهم بالركوب ثانية  
 فلم يكن مجيب واخذ رجاله يفتسون عنه فوجوده ملقى بين صخرين  
 جواده الواقف امامه . فانه اصيب برصاصة في صدره فصرعه  
 فحملوه الى امام سليم باتما مغمى عليه لكثرة ما نزل من دمه وبادر  
 ومواساة الجرح وعادوا به الى مضربه فاسلم الروح وهم في الطريق  
 عم الامير عباس فنصبه اميراً على قبيلته

### الخاتمة

عباس بالرياحين وازهار الخريف وانتظم فيها عقد جمهور منتخب من  
 اء الشهابيين والارسلانيين تم حضر والي بيروت ومتصرف لبنان  
 من فسوس اللاتين واقتصر الاحفال على هزلاً بسبب الحداد  
 جربت سعيئة الدير فلم تحملمها فمادت الى بيت اميها وخرجت الاميرة  
 على ذراع عمها واتت امها وابنة عمها ورائها والدموع تساقط من  
 ي ووضع يده في يدها فكلهما القاصد الرسولي واهدت اليهما الهدايا  
 وجدها الامير احمد في المغارة

الى امه تلك الليلة يصف لها حفله اكليله وقال انه وجد اسلحة جده  
 نيتها الوثيقة وعليها ختم الملك ركاروس قلب الاسد فلا تسبه في لقبه  
 وطلب اليها ان تعرض ذلك على جلالة الملكة وتطلب منها ان تلقبه

ن

To: [www.al-mostafa.com](http://www.al-mostafa.com)